

منتقى التفاسير في تفسير سورة البقرة

تفسير الآيات من (40-64)

جمع وترتيب

أبو عمر د/ محمد عبد المعطي محمد

دكتوراه في طب الأطفال وماجستير بدرجة امتياز في علوم

القرآن والحديث كلية أصول الدين الأزهر الشريف.

**{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46) [البقرة: 40-46]**

المناسبة والسياق والجو العام للآيات

**لا يزال الكلام في الكتاب وكونه لا ريب فيه وبيان أحوال الناس وأصنافهم في أمره، وقد قلنا: إن التفنن في مسائل مختلفة منتظمة في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبليغ، ولن يبلغ شأوه فيها بليغ، ذكر الكتاب أنه لا ريب فيه، ثم ذكر اختلاف الناس فيه فابتدأ بالمستعدين للإيمان به المنتظرين للهدى الذي يضئ نوره منه، وثنى بالمؤمنين، وثلث بالكافرين، وقفى عليهم بالمنافقين، ثم ضرب الأمثال لفرق الصنف الرابع، ثم طالب الناس كلهم بعبادته، ثم أقام البرهان على كون الكتاب منزلا من الله على عبده محمد - صلى الله - تعالى - عليه وسلم -، وتحدى المرتابين بما أعجزهم، ثم حذر وأنذر، وبشر ووعد، ثم ذكر المثل والقدوة وهو الرسول، وذكر اختلاف الناس فيه كما ذكر اختلافهم في الكتاب، ثم حاج الكافرين، وجاءهم بأنصع البراهين، وهو إحياؤهم مرتين وإماتتهم مرتين، وخلق السماوات والأرض لمنافعهم، ثم ذكر خلق الإنسان وبين أطواره..**

**ثم طفق يخاطب الأمم والشعوب الموجودة في البلاد التي ظهرت فيها النبوة تفصيلا، فبدأ في هذه الآيات بذكر اليهود للمعنى الذي نذكره، والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه، وحسن اتساقه في سبكه، فهو دائر على قطب واحد في فلكه، وهو الكتاب، والمرسل به، وحاله مع المرسل إليهم..([[1]](#footnote-1))**

**يقول القاضي البيضاوي :**

**واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وعقبها تعداد النعم العامة تقريراً لها وتأكيداً، فإنها من حيث إنها حوادث محكمة تدل على محدث حكيم له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ومن حيث إن الإخبار بها على ما هو مثبت في الكتب السابقة ممن لم يتعلمها محمد - صلى الله عليه وسلم- ولم يمارس شيئاً منها إخبار بالغيب معجز يدل على صدق نبوته ، ومن حيث اشتمالها على خلق الإنسان وأصوله وما هو أعظم من ذلك، تدل على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهل العلم والكتاب منهم، وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم، ويوفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج ليكونوا أول من آمن بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وما أنزل عليه .انتهى ([[2]](#footnote-2))**

**لقد انتقل السياق القرآني من الحديث عن القرآن العظيم ؛ ذلك المنهج والدستور الرباني الخالد ؛ وأنه لا ريب فيه الهداية والفلاح إلى الحديث عن مواقف الناس تجاه دعوته وتحدث عن قضيته الأولى (قضية التوحيد) في شجون الحديث .. ثم انتقل الخطاب للحديث إلى بني إسرائيل .. فما عساه يكون وجه المناسبة ؟**

فائدة : لماذا كثر الخطاب لبني اسرائيل في سورة البقرة وفي القرآن بعامة؟

**قال العلامة أبو السعود : هو تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى طائفة خاصةٍ من الكفرة المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بفنون النعم الفائضة عليهم بعد توجيهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرِه بتذكير كلهم بالنعمة العامة لبني آدم قاطبةً بقوله تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ} الخ {وَإِذْ قُلْنَا للملائكة} الخ ؛ لأن المعنى :أي بلّغهم كلامي ، واذكر لهم إذ جعلنا أباهم خليفةً في الأرض وكرمناه ، وشرفناه ، وقبِلْنا توبتَه ، والخطاب للناس جميعاً إذ الابنُ مَبْنَى أبيه..([[3]](#footnote-3))**

**فقد بيّن الله سبحانه طريق الهداية والضلال ، ونبَّه على جزاء كل منهما إجمالا ؛ ثم أشار هنا إلى تفصيله وتوضيحه بإيراد قصص القرون الماضية والأمم السالفة ليعتبر المؤمنون منها ولا ينزلقوا مزالق الغاوين الضالين قبلهم ، ومن جملتها قصة إنعامه سبحانه على بنى إسرائيل وكفرهم وغَيِّهم .. وهنا يؤكد الخطاب القرآني على وظيفته المنهجية في الهداية والتنوير للإنسان لكى يمشي في طريق الحياة على نورٍ من ربه وبصيرةٍ وهدىً ؛ . بلا تخبطٍ ولا تعثرٍ..**

**قال العلامة ابن جزي : فإنه تعالى لما قدَّم دعوة الناس عموما وذكر مبدأهم: دعا بني إسرائيل خصوصا وهم اليهود، فتارةً دعاهم بالملاطفة وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتخويف، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم، وذكر العقوبات التي عاقبهم بها.([[4]](#footnote-4))**

**وابتداء من هذا المقطع في السورة يواجه السياق بني إسرائيل، أولئك الذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهةً منكرة ، وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة ، وكادوا لها كيداً موصولاً لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة وتبين لهم أنه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم، وذلك منذ وحد رسول الله – صلى الله عليه وسلم - بين الأوس والخزرج، وسد الثغرات التي كانت تنفذ منها يهود بينهم، وشرع لهم منهجاً مستقلاً، يقوم على أساس الكتاب العظيم..**

**هذه المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخبُ أوارها حتى اللحظة الحاضرة؛ بنفس الوسائل ونفس الأساليب لا يتغير إلا شكلها ؛ أما حقيقتها فباقية، وأما طبيعتها فواحدة، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردهم من جهةٍ إلى جهة، ومن قرن إلى قرن، فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام ولا يكيد للمسلمين!**

**ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد حيث كان القرآن يصدِّق ما جاء في التوراة في عمومه ؛ وحيث كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين.**

**وهذا الدرس هو الشطر الأول من هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل بل هذه الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد.([[5]](#footnote-5))**

**بدءً من هذه الآية ( = الآية 40 من سورة البقرة) تبتدأ الحملة التصحيحية على اليهود الذين انحرفوا عن المنهج؛ وخانوا العلم والكتاب الذي بأيديهم فاستحقوا اللعنة والغضب الإلهي على نقضهم ميثاق الله الذي واثقوه ؛ أولئك هم الفاسقين {لَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)} (البقرة: 27) قال بعض المفسرين: هذا العهد هو الذي أخذه الله تعالى على أتباع الرسل والكتب المنزلة أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن لا يكتموا أمره ؛ فالآية على هذا في أهل الكتاب {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)} (البقرة: 89، 90) ..**

**روى الطبري ([[6]](#footnote-6)) عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن أشياخ من الأنصار قالوا: فينا والله وفيهم - يعني في الأنصار، وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم - نزلت هذه القصة يعني: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا} .. قالوا: كنا قد علوناهم (أي غلبناهم) دهرا في الجاهلية - ونحن أهل الشرك، وهم أهل الكتاب - فكانوا يقولون: إن نبيا الآن مبعثه قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عاد وإرم. فلما بعث الله - تعالى ذكره - رسوله من قريش واتبعناه، كفروا به. يقول الله: {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به} ا.ه..**

**الكتاب القرآن، ومُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ يعني التوراة ، و{يَسْتَفْتِحُونَ} معناه أن بني إسرائيل كانوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قد علموا خروجه بما عندهم من صفته –صلى الله عليه وسلم- وذكر وقته، وظنوا أنه منهم، فكانوا إذا حاربوا الأوس والخزرج فغلبتهم العرب قالوا لهم: لو قد خرج النبي الذي قد أظل وقته لقاتلناكم معه واستنصرنا عليكم به و{يَسْتَفْتِحُونَ} معناه يستنصرون، وروي أن قريظة والنضير وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت كانوا يستفتحون على سائر العرب، وبسبب خروج النبي المنتظر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسكناهم به، فإنهم كانوا علموا مكان مبعثه، وما عرفوه أنه محمد عليه السلام وشرعه، ويظهر من هذه الآيات العناد منهم، وأن كفرهم كان مع معرفة ومعاندة، «ولعنة الله» : معناه إبعاده لهم وخزيهم لذلك ا.ه([[7]](#footnote-7))**

**قلت: هكذا كان حال اليهود الذين كفروا بما علموا يقينه وخانوا علمهم وتكريم الله تعالى لهم فاتصل فيهم السياق القرآني ليجعل منهم العبرة والمثل لمن كرَّمه الله تعالى فنكص على عقبيه واستهان بدين الله – سبحانه – وعهده .. وهنا الخطاب جاء موجهاً لتذكير بني إسرائيل بنعم الله السالفة عليهم ؛ توبيخاً لهم على كفرهم وبيانا لجحودهم ، وأنهم لا عذر لهم في نقضهم عهد الله تعالى ، والخطاب لك واسمعي يا جارة ؛ فالبيان والتصحيح هو لمسار أمة محمد صلوات الله عليه ؛ حتى تتجنب المزالق العقدية والمنهجية الخطيرة التي وقع فيها بني إسرائيل.**

**التفسير (من الآية 40-46)**

**قوله تعالى: {** **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ () }**

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالى بِنِي إِسْرَائِيلَ (وَهُمُ اليَهُودُ - وَإِسْرَائِيلُ هُوَ يَعْقُوبُ عَلَيهِ السَّلاَمُ) بِالدُّخُولِ في الإِسلامِ، وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَيَحُثُّهُمْ عَلَى ذلِكَ بِتَذْكِيرِهِمْ بِالنِّعَمِ التِي أَنْعَمَهَا عَلَيهِمْ، بِأَنْ جَعَلَ فِيهِم النُّبُوَّةَ، وَبِأَنْ أَنْجَاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَفجَّرَ لَهُمُ المَاءَ مِنَ الحَجَرِ في سَيْنَاءَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِم المَنَّ والسَّلْوَى. وَيُطَالِبُهُمْ بِالوَفَاءِ بِالعَهْدِ الذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ بِوُجُوبِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ الذِي سَيَبْعَثهُ اللهُ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ.

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا مَا أَمَرَهٌمْ بِهِ أَوْفَى بِعَهْدِهِ إِلَيْهِمْ بِأَنَّهُ سَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَسَيُدْخِلُهُم الجَنَّةَ. أَمَّا إِذا لَمْ يَفْعَلُوا مَا أَمَرَهُم اللهُ بِهِ، فَلْيَحْذَرُوا أَنْ تَحِلَّ بِهِمْ نِقَمُ اللهِ التِي أَنْزَلَهَا بمَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ آبَائِهِمْ، مِنَ المَسْخِ وَغَيْرِهِ مِنَ العُقُوبَاتِ.

فَاللهُ تَعَالى يُرغِّبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الإِيمَانِ، وَيُحَذّرُهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَالمُعَانَدَةِ (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) . وقوله تعالى {فَارْهَبُونِ } - أي فَخَافُونِي فِي نَقْضِكُمُ العَهْدَ. ([[8]](#footnote-8))

**\*\*\*\*\*\***

فائدة : ما هو العهد المذكور في الآية الكريمة ؟

نجد الإجابة في القرآن كما قال جل ثناؤه : { ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل } ( سورة المائدة : 12 ) ، وكما قال سبحانه : { فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون } ( سورة الأعراف : 156 - 157 ) ..قال صاحب المنار 1/240 : عهد الله - تعالى - إليهم يعرف من الكتاب الذي نزله إليهم ، فقد عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم ، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه ، وعهد إليهم أن يرسل إليهم نبيا من بني إخوتهم ؛ أي بني إسماعيل يقيم شعبا جديدا . هذا هو العهد الخاص المنصوص ، ويدخل في عموم العهد عهد الله الأكبر الذي أخذه على جميع البشر بمقتضى الفطرة وهو التدبر والتروي ، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور ، ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهي العام ، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة في كتابهم ، لآمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - واتبعوا النور الذي أنزل معه وكانوا من المفلحين ، ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - كما فعل بعض المفسرين فإن الإيمان داخل في العهد العام وهو من أفراد العهد الخاص فلا دليل على قصر عموم العهد المضاف عليه ا.ه.([[9]](#footnote-9))

قلتُ (جامعه) : والدليل على ذلك أنه انتقل من الأمر بالوفاء بعموم العهد إلى العهد الخاص المقصود من السياق فقال - تعالى - جل شأنه : { وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم }..

**\*\*\*\*\*\***

نعود فنقول :

**يخاطب الله سبحانه اليهود في كل زمان ومكان خطابه لآبائهم وأسلافهم مذكراً إياهم بنعمه الكثيرة عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران ومذكرا إياهم وموبخاً لهم على عدم اتباع نهج أبيهم الصالح يعقوب عليه السلام يقول لهم :يا أولاد يعقوب الرجل الصالح ( قال ابن كثير : وتقديره : يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق ، كما تقول : يا ابن الكريم ، افعل كذا . يا ابن الشجاع ، بارز الأبطال ، يا ابن العالم ، اطلب العلم ، ونحو ذلك . )، وإسرائيل: معناها في العبرية عبد الله ؛والمقصود هنا أنهم لم يصلحوا بأفعالهم لمقام العبودية الذي فيه أبوهم يعقوب حق قيام ..يقول المولى سبحانه: {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} أى احفظوا نعمي، والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان، وقيل: أراد به الشكر ؛ لأن في الشكر ذكرًا وفي الكفران نسيانًا، قال الحسن: ذكر النعمة شكرها، و{نعمتي} أي: نعمي، لفظها واحد ومعناها جمع ؛وهو اسم لجنس النعمة يعمها {الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} أي: على أجدادكم وأسلافكم، قال قتادة: هي النعم التي خُصَّت بها بنو إسرائيل: فلق البحر، وإنجاؤهم من فرعون بإغراقه، وتظليل الغمام عليهم في التيه، وإنزال المن والسلوى، وإنزال التوراة، في نعم كثيرة لا تُحصى ( قال ابن كثير : وهذا كقول موسى عليه السلام لهم : { يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين } ( المائدة : 20 ) يعني في زمانهم . ، وقال غيره: هي جميع النعم التي لله ? على عباده، {وَأَوْفُوا بِعَهْدِي}: بامتثال أمري {أُوفِ بِعَهْدِكُمْ} بالقبول والثواب {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} فخافوني في نقض العهد.([[10]](#footnote-10))**

**قال ابن كثير : وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب ، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة ، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاتعاظ بالقرآن وزواجره ، وامتثال أوامره ، وتصديق أخباره ، والله الهادي لمن يشاء إلى صراطه المستقيم.**

وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)

**قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه :"آمنوا"، أي صدِّقوا، ويعني بقوله :"بما أنزلت" ، ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن.. "مصدِّقًا لما معكم"، أن القرآن مصدِّق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة. فأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم جل ثناؤه أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة، لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه واتباعه، نظيرُ الذي من ذلك في التوراة والإنجيل... {وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} أي لا تكونوا أوَّل أمّتكُمْ كذَّبَ به وَجحد أنه مِن عندي، وعندكم من العلم به ما ليس عند غيركم ..**

**( قال ابن كثير : وقال أبو العالية : { ولا تكونوا أول كافر به } أى أول مَن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعهم بمحمد وبمبعثه . وكذا قال الحسن ، والسدي ، والربيع بن أنس .**

**واختار ابن جرير أن الضمير في قوله : { به } عائد على القرآن ، الذي تقدم ذكره في قوله تعالى : { بما أنزلت } .. وكلا القولين صحيح ( أي عود الضمير على محمد – صلى الله عليه وسلم – أو على القرآن) ؛ لأنهما متلازمان ، لأن مَن كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومَن كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كفر بالقرآن .)..**

**قلتُ (جامعه) : ورأى ابن كثير حسن يجمع بين دلالات النص ويوافق جمال السياق القرآني المتسع الأفق ، واما عن المقصود ب{ولا تكونوا أول كافر} مع وجود من كفر به قبلهم ؛ فالمقصود هنا كونهم رأساً وزعامةً في الكفر مع علمهم اليقيني بصحة نبوة محمد واحقية دين الإسلام ، قال صاحب المنار : أي ولا تبادروا إلى الكفر به والجحود له مع جدارتكم بالسبق إليه ، وهذا الاستعمال معروف في الكلام البليغ لهذا المعنى لا يقصد بالأولية فيه حقيقتها .ا.ه ..([[11]](#footnote-11))**

**\*\*\*\*\*\***

**{ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)}**

**والثمن والمال والكسب الدنيوي المادي.. كله شنشنة يهود من قديم!! وقد يكون المقصود بالنهي هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء، كما ورد في مواضع أخرى، واستبقاء هذا كله في أيديهم بصد شعبهم كله عن الدخول في الإسلام، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة.. على أن الدنيا كلها- كما قال بعض الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم في تفسير هذه الآية- ثمن قليل، حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله، وإلى عاقبة الإيمان في الآخرة عند الله. ([[12]](#footnote-12))**

**{ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا } أي لا تبيعوا ما آتيتكم من العلم بكتابي وآياته بثمنٍ خسيسٍ وعَرَضٍ من الدنيا قليل. وبيعُهم إياه - تركهم إبانةَ ما في كتابهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم للناس، وأنه مكتوب فيه أنه النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل - بثمنٍ قليل، وهو رضاهم بالرياسة على أتباعهم من أهل ملتهم ودينهم، وأخذهم الأجرَ ممَّن بيّنوا له ذلك على ما بيّنوا له منه.**

**وفي قوله تعالى ذكره: {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} يقول: فاتقونِ - في بَيعكم آياتي بالخسيس من الثمن، وشرائكم بها القليل من العَرَض، وكفركم بما أنزلت على رسولي وجحودكم نبوة نبيِّي - أنْ أُحِلّ بكم ما أحللتُ بأسلافكم الذين سلكوا سبيلكم من المَثُلات والنَّقِمَات.([[13]](#footnote-13))**

**عن طلق بن حبيب ، قال : التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله .**

**\*\*\*\*\*\***

فصل: خطورة شأن العلم والتعليم وإرشاد الخلق .

**قال العلامة القرطبي: وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله أو امتنع من تعليم ما وجب عليه أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل في مقتضى الآية والله أعلم.**

**قال ابن كثير : في قوله تعالى { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } قيل : معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب ، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلم علما مما يُبتغَى به وجه الله؛ لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يَرَحْ رائحة الجنة يوم القيامة".**

مسألة فقهية : هل يجوز اخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم ؟

**قال : وأما تعليم العلم بأجرة ، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله ، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب ، فهو كما لم يتعين عليه ..**

**وإذا لم يتعين عليه ، فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ، كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ :" إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله " ، وقوله في قصة المخطوبة : " زوجتكها بما معك من القرآن" .. فأما حديث عبادة بن الصامت أنه علَّم رجلا من أهل الصُّفَّة شيئا من القرآن فأهدى له قوسا ، فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فاقبله ، فتركه " .. رواه أبو داود ورُوي مثله عن أبي بن كعب مرفوعا (قال العلامة الألباني: صحيح، السلسلة الصحيحة (256) ، فإن صحَّ إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم أبو عمر بن عبد البر على أنه لما علَّمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس ، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في المخطوبة ، والله أعلم . ([[14]](#footnote-14))**

**\*\*\*\***

مسلك اليهود وكل المضللين (بكسر اللام) في الغواية .

**ثم قال سبحانه : { ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون }... بينت هذه الآية مسلكهم في الغواية والإغواء في سياق النهي عنه . فقد جاء في كتبهم التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم ويعملون العجائب ، وجاء فيها أيضا أنه - تعالى - يبعث فيهم نبيا من ولد إسماعيل يقيم به أمة ، وأنه يكون من ولد الجارية ( هاجر ) وبين علاماته بما لا لبس فيه ولا اشتباه ، ولكن الأحبار والرؤساء كانوا يلبسون على العامة الحق بالباطل فيوهمونهم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأنبياء الذين نعتتهم الكتب بالكذبة ( حاشاه ) ويكتمون ما يعرفون من نعوته التي لا تنطبق على سواه ، وما يعلمون من صفات الأنبياء الصادقين وما يدعون إليه ، وكله ظاهر فيه - عليه الصلاة والسلام - بأكمل المظاهر .**

**ومن اللبس أيضا ما يفتريه الرؤساء والأحبار فيكون صادا لهم عن سبيل الله وعن الإيمان بنبيه عن ضلال وجهل ، وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التي زادوها على الكتب المنزلة بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض المتقدمين وأفعالهم ، فكانوا يحكمون هذه الزيادات في الدين حتى في كتب الأنبياء ، ويعتذرون بأن الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم ، فهم الواسطة بينهم وبين الأنبياء ، وعلى من بعدهم الأخذ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم ، ولكن الله لم يقبل هذا العذر منهم فأسند إليهم ذلك اللبس وكتمان الحق الموجود في التوراة إلى اليوم ، وكذلك لا يقبل الله ممن بعدهم ترك كتابه لكلام الرؤساء بحجة أنهم أكثر علما وفهما ، فكل ما يعلم من كتاب الله - تعالى - يجب العمل به ، وإنما يسأل الإنسان أهل الفهم عما لا يعلم منه ليعلم فيعمل .**

سر اقتران الصلاة بالزكاة في القرآن.. وعظمة التكافل الاجتماعي من خلال آيات الله.

**ثم قال - جل ثناؤه : {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين } فبعد الدعوة إلى الإيمان اليقيني دعاهم إلى العمل الصالح على الوجه النافع المرضي لله - تعالى - ، وكانوا ضلوا عنه بالتمسك بالظواهر والوقوف عند الرسوم ، فقد كانوا يصلون ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة ؛ لأن الإقامة هي الإتيان بالشيء مقوما كاملا وهي في الصلاة التوجه إلى الله - تعالى - بالقلب والخشوع بين يديه ، والإخلاص له في الذكر والدعاء والثناء ، فهذا هو روح الصلاة الذي شرعت لأجله ولم تشرع لهذه الصورة ؛ فإن الصورة تتغير في حكم الله - تعالى - على ألسنة أنبيائه ؛ لأنها رابطة مذكرة ، فلم تكن للأنبياء صورة واحدة للصلاة ، ولكن هذا الروح لا يتغير فهو واحد لم يختلف فيه نبي ولم ينسخ في دين .**

**ثم أمر بعد الصلاة التي تطهر الروح وتقربها من الله - تعالى - بالزكاة التي هي عنوان الإيمان ومظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس ، وقد عهد في القرآن قرن الأمر بإتيان الزكاة بالأمر بإقامة الصلاة ، ومن أقام الصلاة لا ينسى الله - تعالى - ولا يغفل عن فضله ، ومن كان كذلك فهو جدير ببذل المال في سبيله . مواساة لعياله ، ومساعدة على مصالحهم التي هي ملاك مصلحته ، فإن الإنسان إنما يكتسب المال من الناس بحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنيا إلا بهم ومنهم ، فإذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة في فكره ونفسه أو علة في بدنه فيجب على الآخرين الأخذ بيده ، وأن يكونوا عونا له حفظا للمجموع الذي ترتبط مصالح بعضه بمصالح البعض الآخر ، وشكرا لله على ما ميزهم به من النعمة ، وظاهر أن الغني في حاجة دائمة إلى الفقير كما أن الفقير في حاجة إليه ، ولكن النفوس تمرض فتغفل عن المصلحة في بذل المال ومساعدة الفقير والضعيف مبالغة وغلوا في حب المال الذي هو شقيق الروح كما يقولون ؛ لهذا جعل الله بذل المال والإنفاق في سبل الخير علامة من علامات الإيمان وجعل البخل من آيات النفاق والكفر ، كما سيأتي في بعض الآيات .**

**قال الأستاذ الإمام : إن البخل - ومنبعه القسوة على عباد الله - تعالى - ، والحرص على المال استرسالا في الشهوات وميلا مع الأهواء - لا يجتمع مع الإيمان الصحيح في قلب واحد قط ، وليس لأحد أن يزعم أنه يؤمن بالله وبما أنزل على رسله من الأوامر والنواهي حتى يقوم بما أمر الله فيما طلب منه على ما يحب الله ويرضى .**

**ثم أمر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين ، والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها ، وقد أخره ولم يصله بالصلاة لحكمة جليلة لا رعاية للفاصلة كما زعم بعض المفسرين ، فليس من الجائز أن يكون في القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة ، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس فكيف يقع في كلام الله - تعالى - ؟**

**وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله - تعالى - ؛ فإقامة الصلاة في المرتبة الأولى من عبادة الله - تعالى - لأنها روح العبادة والإخلاص له ، ويليها إيتاء الزكاة لأنها تدل أيضا على زكاة الروح وقوة الإيمان ، وأما الركوع وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به إليها فهو في المرتبة الثالثة فرض للتذكير بسابقيه وما هو بعباده لذاته ، وإنما كان عبادة لأنه يؤدى امتثالا لأمر الله - تعالى - وإظهارا لخشيته ، والخشوع لعظمته ، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا إخلاص فلا يعد عند الله شيئا ، وإن عده أهل الرسوم كل شيء ، بخلاف إقامة الصلاة الذي ذكرناه وإيتاء الزكاة ، ولا يخفى أن الفصل بين معنى الصلاة وصورتها بالزكاة فيه تعظيم لشأن الزكاة. ا.ه من تفسير المنار (1/243،4)**

**\*\*\*\*\*\***

فائدة : في قوله تعالى { واركعوا مع الراكعين}

**قال العلامة الرازي :**

**أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ }(البقرة: 43) فَفِيهِ وُجُوهٌ :**

**أَحَدُهَا: أَنَّ الْيَهُودَ لَا رُكُوعَ فِي صَلَاتِهِمْ فَخَصَّ اللَّهُ الرُّكُوعَ بِالذِّكْرِ تَحْرِيضًا لَهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِصَلَاةِ الْمُسْلِمِينَ.**

**وَثَانِيهَا: أَنَّ الْمُرَادَ صَلُّوا مَعَ الْمُصَلِّينَ، وَعَلَى هَذَا يَزُولُ التكرار لأن في الأول أمر تعالى بإقامتها ، وَأَمَرَ فِي الثَّانِي بِفِعْلِهَا فِي الْجَمَاعَةِ.**

**وَثَالِثُهَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْأَمْرِ بِالرُّكُوعِ هُوَ الْأَمْرَ بِالْخُضُوعِ لِأَنَّ الرُّكُوعَ وَالْخُضُوعَ فِي اللُّغَةِ سَوَاءٌ فَيَكُونُ نَهْيًا عَنِ الِاسْتِكْبَارِ الْمَذْمُومِ وَأَمْرًا بِالتَّذَلُّلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ }(الْمَائِدَةِ: 55) ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَهُمْ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ أَمَرَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالِانْقِيَادِ وَالْخُضُوعِ وَتَرْكِ التَّمَرُّدِ. ا.ه.([[15]](#footnote-15))**

**قلتُ: والقلب أميل إلى المعنى الأخير لموافقته للمعنى في آية المائدة ؛ وهو إعمال لمنهج تفسير القرآن بالقرآن وهو الأولى.**

**وقوله تعالى { واركعوا مع الراكعين} فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة والخروج إلى المساجد . وقد ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما ما هو معروف . وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم على خلاف بينهم في كون ذلك عينا أو كفاية ، وذهب الجمهور إلى أنه سنة مؤكدة مرغب فيها وليس بواجب ، وهو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة ، من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة أو بسبع وعشرين درجة .**

**وثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم : الذي يصلي مع الإمام أفضل من الذي يصلي وحده ثم ينام . والبحث طويل الذيول ، كثير النقول . ([[16]](#footnote-16))**

**\*\*\*\*\*\***

{... أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ...}

**ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني إسرائيل، فإنه في إيحائه للنفس البشرية، ولرجال الدين بصفة خاصة دائم لا يخص قوماً دون قوم ولا يعني جيلا دون جيل ، فلا تمنع خصوصية الخطاب القرآني من عموميته، وبهذا يكون لكل من يحسن القول، ولا يحسن العمل، ويندب الناس إلى الخير، ويأمرهم به، ولا ينظر إلى نفسه، ولا يحملها على أخذ حظها من هذا الخير الذي يدعو إليه.. وفى ذلك ظلم للنفس، وخسران مبين..**

**يقول تعالى : { أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون}**

**الكلام موجه إلى بني إسرائيل في عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم - وقد طفق في هذه الآيات يوبخهم على سيرتهم المعوجة في الدين ، ويهديهم إلى طريق الخروج منها .ثم إن هداية الخطاب عامة لكل أمةٍ أعطاها الله تعالى منهجاً فحادت عنه وخاصةً أمة محمد - عليه الصلاة والسلام.. وهذا من قولهم : إِيَّاكِ أَعْنِي واسْمَعِي يا جَارَة.**

**(وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد صلى اللَّه عليه وسلم ولا يتبعونه. وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدّقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرّقوها خانوا فيها. وعن محمد بن واسع: بلغني أنّ ناسا من أهل الجنة اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم: قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة. قالوا كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها.) ([[17]](#footnote-17))**

**قال ابن عاشور في التنوير (1/474): وهو اعتراض بين قوله تعالى:{وأقيموا الصلاة } وقوله : {واستعينوا بالصبر والصلاة} .. ووجه المناسبة في وقوعه هنا أنه لما أمرهم بفعل شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذيَّل ذلك بقوله سبحانه: {واركعوا مع الراكعين} ليشير إلى صلاتهم التي يفعلونها ، أصبحت لا تغني عنهم ، ناسب أن يزاد لذلك أن ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائمين به على ما ينبغي ، فجيء بهذا الاعتراض ، وللتنبيه على كونه اعتراضا لم يقترن بالواو لئلا يُتوَهَّم أن المقصود الأصلي هو التحريض على الأمر بالبر وعلى ملازمته ، والغرض من هذا هو النداء على كمال خسارهم ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ليستحقوا بذلك ما يُعوَّضون عليه من مراتب ورواتب .. فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها الناس .ا.ه.**

**قال الشوكاني في الفتح (1/54) : والهمزة في قوله تعالى : {أتأمرون الناس بالبر ...} للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين ، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه ، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله : {وتنسون أنفسكم} مع التطهر بتزكية النفس والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاما للناس وتلبيسا عليهم كما قال أبو العتاهية :**

**وصفتَ التقى حتى كأنك ذو تقى وريح الخطايا من ثيابك يسطع**

**والبر : الطاعة والعمل الصالح ، والبر : سعة الخير والمعروف ، والبر : الصدق...**

**والنسيان (بكسر النون) هو هنا بمعنى الترك : أي وتتركون أنفسكم.**

**والتلاوة : القراءة ، وهي المراد هنا وأصلها الاتباع ، يقال تلوته : إذا اتبعته ، وسمي القارئ تاليا والقراءة تلاوة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذي هو عليه .**

**وقوله تعالى: {وأنتم تتلون الكتاب } جملة حال مشتملة على أعظم تقريع وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت .**

**أي كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل وشدة الوعيد عليه ، كما ترونه في الكتاب الذي تتلونه والآيات التي تقرؤونها من التوراة .**

**وقوله تعالى : {أفلا تعقلون} استفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم ، وهو أشد من الأول وأشد ، وأشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم ، فاستنكر عليهم أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك ، الأمر الذي قاموا به في المجامع ونادوا به في المجالس إيهاما للناس بأنهم مُبَلِّغون عن الله ما تحمَّلوه من حججه ، ومبيِّنون لعباده ما أمرهم ببيانه ، وموصِّلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه ، وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه ، ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبيِّنةً لحالهم وكاشفةً لعوارهم وهاتكةً لأستارهم ، وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والخصلة الفظيعة على علمٍ منهم ومعرفةٍ بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمةٍ لتلاوته ، وهم في ذلك كما قال المعري :**

**وإنما حمَّل التوراة قارئها \*\*\*كسب الفوائد لا حب التلاواتِ.**

**ثم انتقل معهم من تقريعٍ إلى تقريع ، ومن توبيخٍ إلى توبيخ فقال : إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك مانعاً لكم عنه زاجرا لكم منه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم .**

**والعقل في أصل اللغة : المنع ، ومنه عقال البعير ؛ لأنه يمنعه عن الحركة ، ومنه العقل في الدية لأنه يمنع ولي المقتول عن قتل الجاني .**

**والعقل نقيض الجهل ، ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة : أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المزرية ، ويصح أن يكون معنى الآية : أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم ا.هـ.**

**\*\*\*\*\*\***

قاعدة للتصحيح وغوصٌ في العمق

**إن الحق ثقيل على النفوس يخرجها عما تألف من لذة موهومةٍ للباطل ، فإذا أراد الداعي إليه إخراج الناس عما تهواه أنفسهم تحيّلوا للانصراف عنه فإن وجدوا الداعي لا يأتي ما دعا إليه أو يخالفه تعللوا بذلك على الدعوة لا على الداعي وحسب، ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين .فكانت دعوة الذين يقولون ما لا يفعلون محاربة للدعوة ذاتها من حيث يدعون ولا يدرون .**

**يقول صاحب الظلال – رحمه الله :**

**إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق..**

**عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة.**

**والمطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمراً هيناً، ولا طريقاً معبداً. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة. وإلى صلة بالله، واستمداد منه، واستعانة بهديه فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره، أو عما يدعو إليه غيره.**

**يقول العلامة الشعراوي :**

**إن الدين كلمة تقال. وسلوك يفعل. فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة. فالله سبحانه وتعالى يقول:{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ \* كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ }(الصف: 2-3) ..فما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك. لا يمكن أن تبشر به غيرك. لذلك نقرأ في القرآن الكريم:{ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }(الأحزاب: 21).**

**فمنهج الدين وحده لا يكفي.. إلا بالتطبيق. ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولا وعملا، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه. حين يريد أن يقنن أمراً في الإسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم: لقد بدا لي أن آمر بكذا وكذا، والذي نفسي بيده من خالف منكم لأجعلنَّه نكالا للمسلمين. وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة، لأنه يعلم من أين تُأتي..**

**ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:{ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }(فصلت: 33) .. فالشرط الأول هو الدعوة إلى الله. والشرط الثاني العمل الصالح، وقوله { إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته؛ ولكنه نسب الفضل إلى الإسلام .ا.ه. ([[18]](#footnote-18))**

**إن آفة رجال الدين- حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة- أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم يأمرون بالخير ولا يفعلونه ويدعون إلى البر ويهملونه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان! كما كان يفعل أحبار يهود! ([[19]](#footnote-19))**

**\*\*\*\*\*\***

فائدة : العلم والدعوة لا ينفعان بغير عمل

**قال تعالى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ }**

**قال صاحب المنار 1/247 : الخطاب في هذه الآيات عام لليهود الذين كان هذا حالهم ، وعبرة لغيرهم ، لأنه مُنبِئٌ عن حال طبيعية للأمم في مثل ذلك الطور الذي كانوا فيه ، ولذلك كان القرآن هداية للعالمين إلى يوم الدين ، لا حكاية تاريخ يقصد بها هجاء الإسرائيليين ، فلتحاسب أمة نفسها في أفرادها ومجموعها ؛ لئلا يكون حالها كحال مَن ورد النص فيهم ، فيكون حكمها عند الله كحكمهم ؛ لأن الجزاء على أعمال القلوب والجوارح ، لا لمحاباة الأشخاص والأقوام أو معاداتهم .ا.ه.**

**روى أحمد وغيره عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب " .([[20]](#footnote-20))**

**وقال أسامة بن زيد رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه ( أي تنقطع أمعاؤه ) في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه ".. وقال شعبة عن الأعمش : فيطحن فيها كما يطحن الحمار برحاه " (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).**

**قال القرطبي (1/345): فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه وإنما ذلك ؛ لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ومستخف بأحكامه وهو ممن لا ينتفع بعلمه ; قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ". ([[21]](#footnote-21))**

**فاعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها وبخهم به توبيخا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال :{ أتأمرون الناس بالبر} الآية .**

**وقال أبو الأسود الدؤلي :**

**لا تنه عن خلق وتأتي مثله\*\*\*\*\*\*\* عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ**

**وابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها\*\*\*\*فإن انتهت عنه فأنت حكيم**

**فهناك يُقبَل إن وعظتَ ويُقتدَى \*\*\*\*بالقول منك ويَنفَعُ التعليم**

**وقال أبو عمرو بن مطر : حضرتُ مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد ، فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير ، فسكت حتى طال سكوته ، فناداه رجل كان يُعرَف بأبي العباس : ترى أن تقول في سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :**

**وغيرُ تقيٍ يأمر الناس بالتقى \*\*\*\* طبيبٌ يداوي والطبيب مريضُ**

**قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج . (قلت ( جامعه) : هكذا وعظ بسكوته فشفى وهكذا درب العلماء الأتقياء).**

**قال إبراهيم النخعي : إني لأكره القصص لثلاث آيات ، قوله تعالى : {أتأمرون الناس بالبر }الآية ، وقوله : {لم تقولون ما لا تفعلون} ، وقوله : {وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه} .**

**وقال الحسن لمطرف بن عبد الله : عظ أصحابك ، فقال إني أخاف أن أقول ما لا أفعل ، قال : يرحمك الله ، وأينا يفعل ما يقول ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر .**

**وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحد بمعروف ، ولا نهى عن منكر . قال مالك : وصدق ، من ذا الذي ليس فيه شيء ! ا. ه.**

**\*\*\*\*\*\***

{واستعينوا بالصبر والصلاة}

**قال تعالى واصلاً دعوته لبني إسرائيل ومنيراً طريق العبرة لغيرهم:**

**{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)}**

**قال في التحرير 1/478 :**

**خطاب لبني إسرائيل بالإرشاد إلى ما يعينهم على التخلق بجميع ما عدد لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلي بالمحامد والتخلي عن المذمات ، له أحسن وقع من البلاغة فإنهم لما خوطبوا بالترغيب والترهيب والتنزيه والتشويه ظُن بهم أنهم لم يبق في نفوسهم مسلك للشيطان ولا مجال للخذلان وأنهم همّوا يتحفزون للامتثال والاقتداء إلا أن ذلك الإلف القديم يثقل أرجلهم في الخطو إلى هذا الطريق القويم ، فوصف لهم الدواء الذي به الصلاح وهو الصبر والصلاة.**

**فالأمر بالاستعانة بالصبر لأن الصبر ملاك الهدى ، فإن مما يصد الأمم عن اتباع دين الحق ضعف النفوس عن تحمل مفارقتها لعاداتها وشهواتها ، فإذا تدرعوا بالصبر سهل عليهم اتباع الحق . وأما الاستعانة بالصلاة فالمراد تأكيد الأمر بها الذي في قوله {وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة} وهذا إظهار لحسن الظن بهم ، وهو طريق بديع من طرق الترغيب ا.ه**

**قال صاحب المنار (1/248-251) ما مختصره :**

**بعد ما بين سوء حالهم ، وأن عقلهم لم ينفعهم والكتاب لم يذكرهم ، أرشدهم إلى الطريقة المثلى للانتفاع بالكتاب والعقل ، والعمل بالعلم النافع ؛ فإن العمل السيئ الذي سببه نسيان النفس ليس طبيعيا كالنفس لا يمكن دفعه ومقاومته ، بل هو اختياري وسببه عارض تمكن إزالته بما أرشد الله إليه في قوله : { واستعينوا بالصبر والصلاة }..**

**قال الأستاذ الإمام : أمر بالصبر وهو كما قال المفسر : حبس النفس على ما تكره . ونقول بعبارة أوضح : هو احتمال المكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم .**

**والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد الله - تعالى - بالجزاء الحسن للصابرين على أعمال البر التي تشق على النفس ، وعن الشهوات المحرمة التي تصبو إليها النفوس ، وبتذكر أن المصائب من فعل الله وتصرفه في خلقه ؛ فيجب الخضوع له والتسليم لأمره ، ومن عجيب أمر هذا الصبر أنه يقي الإنسان من الخسران متى حسن في كل شيء كما تفيده سورة ( العصر ) ويؤيده الاختبار ، وقد اشتهر أن " من صبر ظفر ".**

**والاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الأسباب التي تأفك الناس وتصرفهم عن صراط الشريعة كاتباع الشهوات ، والولوع باللذات ، والبعد عن المؤلمات ، ثم القياس بينها وبين ما رغب الله فيه ، أو أوعد بالعقاب على فعله ، بملاحظة أن ما أوعد الله - تعالى - به أولى بأن يُتَّقَى ، وما وعد به أولى بأن يُرجَى ويُطلَب.**

**وأما الاستعانة بالصلاة فهي أقرب إلى حصول المأمول ؛ وإرجاع النفس إلى الله - تعالى - لما لها من التأثير في الروح ، ولكنها أشق على النفس الأمارة بالسوء ؛ ولذلك قال - تعالى - : { وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين } أي : لثقيلة شديدة الوقع كقوله تعالى : { كبر على المشركين ما تدعوهم إليه } .. إلا على المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله - تعالى - ؛ فهؤلاء هم الذين يستفيدون بالصلاة والصبر وكل الخلائق الحسنة ، لما تعطيه الصلاة من مراقبة الله - تعالى - ، كما قال - عز وجل - : { إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين } ، فمن خواص الصلاة والصبر نفي الجزع ، ومن خواصها النهي عن الفحشاء والمنكر ، ومن خواصها الجود والسخاء ، فالمصلي الحقيقي هو البار الحقيقي الذي لا يترك الحق لأجل شهوة ، ولا لما يعرض له في معاملاته مع الخلق من خوف وخشية ، هذا أثر صلاة الخاشعين بالإجمال ، ولذلك قال - تعالى - : { قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون }.**

**ثم وصف الخاشعين وصفا يناسب المقام ، ويظهر وجه الاستعانة به فقال سبحانه : { الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون } أي : الذين يتوقعون لقاء الله - تعالى - يوم الحساب والجزاء وأنهم إليه راجعون ، بعد البعث لا مرجع لهم إلى غيره ، قال شيخنا : فالإيمان بلقاء الله - تعالى - هو الذي يوقف المعتقد عند حدوده ، ولو لم يكن الاعتقاد يقينيا ، فإن الذي يغلب على ظنه أن هذا الشيء ضار يجتنبه أو أنه نافع يطلبه ، ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن ، وقد فسر الظن مفسرنا ( الجلال السيوطي ) باليقين ؛ لأنه الاعتقاد المنجي في الآخرة ، وفاته أن الاكتفاء بالظن أبلغ في التقريع والتوبيخ كأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يقرءون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذي يأخذ صاحبه بالاحتياط .**

**( أقول ) : بل هو تقليد عادي محض كالعادات القومية والوطنية فهو لا ينجي صاحبه في الآخرة .ا.ه. كلام العلامة رشيد رضا.**

**قال ابن جرير الطبري : معنى الآية : واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب ، بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر ، المقربة من رضا الله ، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته . قال ابن كثير : هكذا قال ، والظاهر أن الآية وإن كانت خطابا في سياق إنذار بني إسرائيل ، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص ، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم . والله أعلم .**

**قال : وقوله تعالى : { الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون } هذا من تمام الكلام الذي قبله ، أي : وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، أي : يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه ، وأنهم إليه راجعون ، أي : أمورهم راجعة إلى مشيئته ، يحكم فيها ما يشاء بعدله ، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات .**

**فأما قوله سبحانه : { يظنون أنهم ملاقو ربهم } قال ابن جرير - رحمه الله : العرب قد تسمي اليقين ظنا ، والشك ظنا ، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفة ، والضياء سدفة ، والمغيث صارخا ، والمستغيث صارخا ، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده ( قلت (أي جامعه) : وهو ما يسميه العرب الأضداد) ، ومنه قول الله تعالى : { ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها } ( الكهف : 53 ) .**

**ثم قال ابن جرير : بسنده ، عن مجاهد ، قال : كل ظن في القرآن يقين ، وروى عنه قال : كل ظن في القرآن فهو علم . وهذا سند صحيح .. قلت (أي ابن كثير) : وفي الصحيح : أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة :" ألم أزوجك ، ألم أكرمك ، ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . فيقول الله تعالى : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول الله : اليوم أنساك كما نسيتني " ا.ه.([[22]](#footnote-22))**

**\*\*\*\*\*\***

فائدة : الصبر والصلاة = أصل الهداية

**قال - عليه السلام - ( وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر ) رواه مسلم .**

**فالصبر هو خُلق فاضل من أخلاق النفس ، يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمُل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها .**

**والصبر باعتبار مُتعلَّقه أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخَّطها .**

**فالصبر سلاح عظيم للحصول على كل خير في الدنيا والنجاة من كل كرب .**

**( فلولا صبر الزارع على بذره ما حصد ، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى ، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج ، ولولا صبر المقاتل في ساح الوغى ما انتصر ، وهكذا كل الناجحين في الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر .**

**وإذا كان هذا في أمور الدنيا ، ففي أمور الآخرة أولى ، وخاصة أهل الإيمان ، فهم أشد الناس حاجة للصبر لأنهم يتعرضون للأذى والمحن والابتلاءات .**

**قال تعالى : {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ } .**

**وقال تعالى : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.ا.ه.) ([[23]](#footnote-23))**

**قال شيخ الإسلام رحمه الله: فبالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ }.. وكما في حديث ابن عباس - عند أحمد- حين أوصاه النبي - عليه السلام - قال :( واعلم أن النصر مع الصبر ) . وكما في حديث أبي مالك الأشعري قال : قال - عليه السلام - ( والصبر ضياء ) رواه مسلم .**

**وقال ابن القيم في الفوائد : والذي يبعث على الصبر أمور :-**

**أحدها : إجلال الله تبارك وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع .**

**الثاني : مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له .**

**الثالث : مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه .**

**الرابع : مشهد الغضب والانتقام ، فإن الرب إذا تمادى العبد في معصيته غضب .**

**الخامس : مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة .**

**السادس : مشهد القهر والظفر ، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاقه. ا.ه.**

**والصبر عرَّفه الغزالي في إحياء علوم الدين بأنه : ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، وهو تعريف خاص بالصبر الشرعي صالح لأن يكون تفسيرا للآية لأنها في ذكر الصبر الشرعي ، وأما الصبر من حيث هو الذي هو وصف كمال فهو : عبارة عن احتمال النفس أمرا لا يلائمها إما لأن مآله ملائم ، أو لأن عليه جزاء عظيما فأشبه ما مآله ملائم ، أو لعدم القدرة على الانتقال عنه إلى غيره مع تجنب الجزع والضجر .. فالصبر احتمال وثبات على ما لا يلائم ، وأقل أنواعه ما كان عن عدم المقدرة .. ولذا ورد في الصحيح : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " ؛ أي الصبر الكامل هو الذي يقع قبل العلم بأن الرجوع عن ذلك الأمر غير ممكن ، والحصر في الحديث مقصوده حقيقة الصبر قبل إعمال العقل وإدراك أن الأمر حاصل لا محيص عنه ؛ لذا كانت حقيقته عند الصدمة الأولى.**

**والصلاة أريد بها هنا معناها الشرعي في الإسلام وهي : مجموع محامد لله تعالى قولا وعملا واعتقادا ؛ فلا جرم كانت الاستعانة المأمور بها هنا راجعة لأمرين (الصبر والشكر).. وقد قيل إن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر ؛ كما في الإحياء ، وهو قول حسن .**

**ومعظم الفضائل ملاكها الصبر ؛ إذ الفضائل تنبعث عن مكارم الخلال ، والمكارم راجعة إلى قوة الإرادة ، وكبح زمام النفس عن الإسامة في شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالا أو عما يورث نقصانا ..**

**فكان الصبر ملاك الفضائل فما التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر . ومما يؤثر عن علي - رضي الله عنه - : الشجاعة صبر ساعة .**

**وحسبك بمزية الصبر أن الله جعله مكمل سبب الفوز في قوله تعالى { والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر} وقال هنا {واستعينوا بالصبر والصلاة}..**

**قال الغزالي : ذكر الله الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا }، وقال : { وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا }، وقال {إن الله مع الصابرين } اهـ .**

**وأنت إذا تأملت وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر ؛ فإن فيه مخالفة النفس هواها ومألوفها في التصديق بما هو مغيب عن الحس الذي اعتادته ، وبوجوب طاعتها واحدا من جنسها لا تراه يفوقها في الخلقة وفي مخالفة عادة آبائها وأقوامها من الديانات السابقة . فإذا صار الصبر خُلُقا لصاحبه هوَّن عليه مخالفة ذلك كله لأجل الحق والبرهان.. فظهر وجه الأمر بالاستعانة على الإيمان وما يتفرع عنه بالصبر ؛ فإنه خلق يفتح أبواب النفوس لقبول ما أمروا به من ذلك .**

**وأما الاستعانة بالصلاة فلأن الصلاة شكر والشكر يذكِّر بالنعمة ؛ فيبعث على امتثال المنعم على أن في الصلاة صبرا من جهات في مخالفة حال المرء المعتادة ولزومه حالة في وقت معين لا يسوغ له التخلف عنها ولا الخروج منها على أن في الصلاة سرا إلهيا لعله ناشئ عن تجلي الرضوان الرباني على المصلي ..**

**فلذلك نجد للصلاة سرا عظيما في تجلية الأحزان وكشف غم النفس وقد ورد في الحديث : " أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا حزبه - بزاي وباء موحدة - أي نزل به أمر- فزع إلى الصلاة " رواه أبو داود.. وهذا أمر يجده من راقبه من المصلين وقال تعالى : { إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر } لأنها تجمع ضروبا من العبادات .**

**وأما كون الشكر من حيث هو معينا على الخير فهو من مقتضيات قوله تعالى : { لئن شكرتم لأزيدنكم} ا.ه. ([[24]](#footnote-24))**

* **قال القرطبي : خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها .**

**لأن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه .**

* **قال ابن القيم : والصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوية للقلب، مبيضة للوجه ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشطة للجوارح ، ممدة للقوى ، شارحة للصدر ، منورة للقلب ، حافظة للنعمة ، دافعة للنقمة ، جالبة للبركة ، مبعدة من الشيطان ، مقربة من الرحمن ، وبالجملة : فلها تأثير عجيب في حفظ الصحة والبدن وقواهما ، ودفع المواد الرديئة عنهما ، وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا ، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً ، فما استُدفِعتْ شرور الدنيا والآخرة ، ولا استُجلبتْ مصالحهما بمثل الصلاة ، وسر ذلك : أن الصلاة صلة بالله ، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها ، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه ، والعافية والصحة والغنيمة والغنى ، والراحة والنعيم ، والأفراح والمسرات كلها محضرة لديه ومسارعة إليه .**
* **وقال الشنقيطي في بيان سر أن الصلاة معينة على أمور الدنيا والآخرة : لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه ، يناجي ربه ويتلو كتابه ، تذكر ما عند الله من الثواب ، وما لديه من العقاب ، فهان في عينه كل شيء ، وهانت عليه مصائب الدنيا ، واستحقر لذاتها ، رغبة فيما عند الله ، ورهبة مما عند الله .**

**\*\*\*\*\*\***

فائدة : في الخشوع ومعناه

**جاء في فتح القدير1/55 : وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهية الخشوع : إنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع ، واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة ، وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة ، وإتعابهم لأنفسهم إتعابا عظيما في الأسباب الموجبة للحضور والخضوع لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر وتوفر الجزاء والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب ، تسهل عليهم تلك المتاعب ، ويتذلل لهم ما يرتكبونه من المصاعب ، بل يصير ذلك لذة لهم خالصة وراحة عندهم محضة ، ولأمر ما هان على قوم ما يلاقونه من حر السيوف عند تصادم الصفوف ، وكانت الأمنية عندهم طعم المنية حتى قال قائلهم :**

**ولست أبالي حين أقتل مسلما \*\*\* على أي جنب كان في الله مصرعي .ا.ه.**

**وقال القرطبي (1/352،3) ما مختصره :**

**قوله تعالى : { وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين} .. الخاشعون جمع خاشع ، وهو المتواضع ، والخشوع هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع.**

**وقال قتادة : الخشوع في القلب وهو الخوف وغض البصر في الصلاة.. قال الزجاج : الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه.... وخشعت الأصوات أي سكنت ...**

**قال سفيان الثوري سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثوري أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ، سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع ؛ فقال : أعيمش (نداء رقيق للأعمش) تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع، ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ؛ لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء ، وتخشع لله في كل فرض افترض عليك.**

**ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : " يا هذا ارفع رأسك ؛ فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب " .**

**وقال علي بن أبي طالب : " الخشوع في القلب ، وأن تلين كفيك للمرء المسلم ، وألا تلتفت في صلاتك " .**

**فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه ؛ فإنما أظهر نفاقا على نفاق.**

**قال سهل بن عبد الله : " لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده لقول الله تبارك وتعالى {تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم} .**

**قلت ( القرطبي) : هذا هو الخشوع المحمود ؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ؛ فتراه مطرقا متأدبا متذللا .. وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك .**

**وأما المذموم فتكلفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُروا بعين البر والإجلال وذلك خدع من الشيطان وتسويل من نفس الإنسان ..**

**روى الحسن أن رجلا تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر أو قال: لكمه .. وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ؛ وكان ناسكا صدقا وخاشعا حقا .ا.ه.**

**تفسير الآيات (47-61 البقرة)**

**يقول تعالى شأنه :**

**{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) }( البقرة 47-61)**

عودة إلى نداء بني إسرائيل

**«يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ. وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً، وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ، وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (47)» .**

**قال ابن كثير : يُذَكِّرُهُمْ تَعَالَى سَالفَ نِعَمِهِ عَلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ، وَمَا كَانَ فَضَّلهم بِهِ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (الدُّخَانِ: 32) ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} (الْمَائِدَةِ: 20) .ا.ه ([[25]](#footnote-25))**

**عودة إلى نداء بني إسرائيل، وتذكير هم بنعمة الله عليهم، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف إجمالاً قبل الأخذ في التفصيل...**

**وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد.**

**وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده وإطماع لهم لينتهزوا فرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان. وإلى عهد الله شكراً على تفضيله لآبائهم، ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون. ([[26]](#footnote-26))**

**وكما قررننا آنفاً إن الخطاب لبني إسرائيل هو في جوهره خطاب للأمة المحمدية ليأخذوا العبرة والعظة والدروس الواضحة مما جرى لحملة الكتاب قبلهم ؛ فلا يكرروا أخطاءهم ولا يسيروا سيرهم...**

تشريف وتكليف .. ونعمةٌ وإساءة

**{ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}**

**قال الآلوسي : كرر التذكير للتأكيد والإيذان بكمال غفلتهم عن القيام بحقوق النعمة ، وليربط ما بعده من الوعيد الشديد به لتتم الدعوة بالترغيب والترهيب ، فكأنه قال سبحانه : إن لم تطيعوني لأجل سوابق نعمتي ، فأطيعوني للخوف من لواحق عقابي. ا.ه.**

**.. ولأن التشريف هنا مقترن بتكليف ؛ فمن لم يراع حق التكليف رده الله تعالى على عقبيه ولعنه وغضب عليه بعد أن قابل نعم الله الكبيرة عليه بالإساءة .. وهذا درسٌ آخر من دروس القرآن العامة تفسره مقولة الجنيد –رحمه الله – حين سئل عن الشكر فقال : هو أن لا تعصي الله بنعمه عليك.**

**( فإن قلت: ما الفائدة في قوله: {التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} ولو أسقطت لقيل: اذكروا نعمتي (عليكم) لما اختل المعنى؟**

**فالجواب: أنه أفاد اختصاص تلك النعمة بهم، وأنهم مقصودون بها، أي اذكروا نعمتي التي جعلتها خاصة لكم، لأنه أنعم عليهم نعما كثيرة، ثم ذكَّرهم بما اختصهم به منها دون ما (شاركهم) الغير (فيه) ، وأيضا فالإنعام على الشخص يطلق على ما ناله مباشرة وما كان بواسطة ؛(فذُكِّروا) بما أنالهم من النعمة مباشرة باختصاصها باسم الوصل " التي".) ([[27]](#footnote-27))**

**{ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } ظاهر هذه الآية أن بني إسرائيل هم أفضل العالمين ، بينما المعروف أن محمد - عليه السلام - هي أفضل الأمم على الإطلاق ، والجواب عن هذه الآية : فالمراد بالعالمين هم أهل زمانهم المعروفون لهم من الأمم المجاورة، إذ كانوا هم أهل كتاب، وفيهم الرسل والأنبياء، على حين كان جيرانهم وثنيين، على كفر وشرك وضلال. وهذا قول جمهور المفسرين . قال ابن كثير : ويجب الحمل على هذا ، لأن هذه الأمة أفضل منهم . لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } .(قلت: فهذا حكم قاطع بالخيرية المطلقة لهذه الأمة- فى مقام الهداية، وصدق الإيمان بالله- على سائر الأديان، وجميع الملل!) لقوله تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } .**

**وقال رسول الله - عليه السلام - : ( أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله ) رواه أحمد. ولقوله - عليه السلام - : ( أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء ، ... وسميت أحمد ، وجعلت أمتي خير الأمم ) رواه أحمد . ولقوله - عليه السلام- :( يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً ، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر ) رواه البخاري .**

**قلت-جامعه: وأذكر هنا ما روى البخاري عن ابن مسعود قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا؛ لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عُدل به: أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر؛ وهو يدعو على المشركين، فقال يا سول الله! إنا لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: {اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون}، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك. فرأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - أشرق وجهه وسره؛ يعنى قوله.ا.ه.([[28]](#footnote-28))**

**فالتفضيل والمفاضلة تكون بالتقوى والعمل الصالح والالتزام بمنهج الله سبحانه، وهذه قاعدة الحق في وزن الناس والأمم {..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)} (الحجرات: 13)، والمعنى: أنّ الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض، فلا يعتزى إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد، وتدَّعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بيَّن الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ}، كأنه قيل: لم لا يُتفاخر بالأنساب؟ فقيل: لأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه طاف يوم فتح مكة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «الحمد الله الذي أذهب عنكم عبية «نخوة وكِبر وتجبر» الجاهلية وتكبرها، يا أيها الناس، إنما الناس رجلان: مؤمن تقى كريم على الله، وفاجر شقىّ هين على الله. والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب» (أخرجه الترمذي وابن حبان) ثم قرأ الآية. وعنه عليه السلام: من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله «أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو يعلى» ..([[29]](#footnote-29))**

**قال القرطبي: ولعلي رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره:**

**الناس من جهة التمثيلِ أكْفاءُ ... أبوهمُ آدمٌ، والأمُّ حواءُ**

**نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مشاكِلةٌ ... وأعْظُمٌ خُلقت فيهمْ وأعضاءُ**

**فإن يكن لهم من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به؛ فالطينُ والماءُ**

**ما الفضلُ إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلَّاءُ**

**وقدر كل امرئٍ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سِيماءُ**

**وضد كل امرئٍ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ.**

{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ ... الآية}

**قال ابن عاشور : عَطَفَ التحذير على التذكير ، فإنه لما ذكرهم بالنعمة وخاصة تفضيلهم على العالمين في زمانهم وكان ذلك منشأ غرورهم بأنه تفضيل ذاتي فتوهموا أن التقصير في العمل الصالح لا يضرهم فعقَّب بالتحذير من ذلك..ا.ه**

**[ هذه النداءات المكررة من ربّ العزة إلى هذا القطيع الشارد، من بنى إسرائيل- إنما تشير إلى ما فى نفوس هؤلاء القوم من كنود، وما فى طباعهم من جفاء وجماح، وما ضمّ عليه كيانهم من جحود للإحسان، وكفران بالنعم وليست هذه النداءات المتكررة إلا لإقامة الحجة عليهم، ومظاهرة النذر لهم، حتى إذا أخذوا بعنادهم وجماحهم كان أخذهم شديدا أليما.. ومن أجل هذا أخذهم الله بالبأساء والضراء، وأوقع عليهم اللعنة، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، فقال تعالى في بنى إسرائيل: «فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً » (13: المائدة)، ويقول سبحانه: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ، وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ» (112: آل عمران)]([[30]](#footnote-30))**

**قال تعالى : {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ () }**

**{وَاتَّقُوا} أي اجعلوا لكم وقاية تقيكم عذاب يوم القيامة، وقال سبحانه: (يَوْمًا) بالتنكير لتذهب النفس مذاهب شتى في تصوير هوله، والإبهام وحده يوجِد رهبة، ويشعر بالتهويل، وبأنه لَا يحد عذابه وصف، ولا هوله ذكر، وإن ذلك اليوم الذي اتقاؤه بالعمل الصالح والقيام بالحقوق، وأداء الواجبات، يتقدم فيه الإنسان منفردا إلا من عمله، ولا تجزي فيه نفس عن نفس شيئا، أي لَا يجزي عمل نفس عن نفس شيئا من الجزاء، أو "تجزي" بمعنى تقضي؛ أي لَا تقضي نفس عن أخرى أي شيء قلَّ أو جَلَّ كما يفيده تنكير " شيئا"، كما قال تعالى: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى}، و{كل امرئ بما كسب رهين}.**

**وتنكير النفس في الموضعين وهو في حيز النفي يفيد عموم النفوس.**

**وعقَّب سبحانه وتعالى بما يؤكد ذلك، فلما كان اليهود يعتقدون أنهم شعب مميز، وأن نسبتهم إلى الأنبياء ستجعلهم في مأمن من العقاب رغم عصيانهم وفسوقهم، وأن آباءهم سيشفعون لهم ... لما كانوا كذلك جاءت هذه الآية الكريمة لتبطل ما اعتقدوه، وتقطع ما أمّلوه، ولتنقض كل ما يحتمل أن يكون وسيلة للنجاة يوم القيامة سوى الإيمان والعمل الصالح.**

**فقال تعالى: {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} والشفاعة من الشفع وهو ضد الوتر، ومعناه الضم، فالشافع يضم قوته إلى من يشفع فيه، فلا يقبل الله تعالى شفاعة من أحد لأحد، إنما العمل وحده هو الذي ينفع كما قال تعالى: {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَة الشَّافِعِينَ}، وإذا كان للأنبياء شفاعة فبأمر الله تعالى وحده {وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضي وَهُم منْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، {وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}أى لَا يؤخذ منها بدل، فالعدل البدل، فلا ينجيهم من عذاب شفاعة ولا فدية من العذاب ببدل يدفع، {وَلا هُمْ يُنصَرُونَ} لأنه لَا ناصر إلا الله، كما قال سبحانه:{لمن الملك اليوم؛ لله الواحد القهار}.([[31]](#footnote-31))**

* **وفي (صحيح البخاري ) عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضيَ الله عَنْهُ عَنِ النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: "يقُولُ اللهُ تَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ القيَامَةِ: لَوْ أنَّ لَكَ مَا في الأرْضِ مِنْ شَيءٍ، أكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أرَدْتُ مِنْكَ أهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ في صُلْبِ آدَمَ؟ أنْ لا تُشْرِكَ بي شَيئاً، فَأَبَيْتَ إلا أنْ تُشْرِكَ بي".**
* **قال الرازي في تفسيره : أن في الآية أعظم تحذير عن المعاصي وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية علم أنه لا خلاص له إلا بالطاعة، فإذا كان لا يأمن ساعةً من التقصير في العبادة ، ومن فوت التوبة من حيث إنه لا يقين له في البقاء صار حذراً خائفاً في كل حال ، والآية وإن كانت في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبة للكل لأن الوصف الذي ذكر فيها وصف ليوم القيامة وذلك يعم كل من يحضر في ذلك اليوم ، ولابد من حضوره .ا.ه.**

من عقيدة أهل السنة في الشفاعة.

**والآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة من أحد نفيا مطلقا، ولكن هنالك آيات كريمة تنفى قبول الشفاعة إلا ممن أذن له الرحمن في ذلك، من هذه الآيات قوله تعالى: « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ»**

**وقوله تعالى: « يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا » .**

**وللجمع بين هذه الآيات، تحمل الآيات التي تنفى الشفاعة نفيا مطلقا على أنها واردة في شأن النفوس الكافرة، وتحمل الآيات التي تبيح الشفاعة على أنها واردة في شأن المؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوي في أن النبي صلّى الله عليه وسلم ستكون له شفاعة في دفع العذاب عن أقوام المؤمنين، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين، من ذلك ما أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وجعلت أمتى خير الأمم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» .**

**قال الإمام ابن جرير الطبري: (وهذه الآية وإن كان مخرجها عاما في التلاوة فإن المراد بها خاص في التأويل، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم. أنه قال: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتى، وأنه قال- عليه السلام: « ليس من نبي إلا وقد أعطى دعوة، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئا». فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد صلّى الله عليه وسلم لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم، وأن قوله وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله- عز وجل-» انتهى .([[32]](#footnote-32))**

**فقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} يَعْنِي عَنِ الْكَافِرِينَ ، وليس فيها مستند للمعتزلة والخوارج في نفى الشفاعة ، لأن المقصود بالخطاب هنا الكافرون ؛ كَمَا قَالَ تعالى : {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} (الْمُدَّثِّرِ: 48)، وَكَمَا قَالَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ \* وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} (الشُّعَرَاءِ: 110، 111) ،فهذا من العام الذي أريد بها الخاص، تبعا للسياق القرآني، ومعرفة أنواع الخطاب القرآني ومقصوده، والجمع بين آيات الله تعالى ورد المتشابه للمحكم كما علمنا الله تعالى؛ وهذا كله من العلوم المطلوبة لتدبر وتفسير كتاب الله، ولكنه ديدن أهل الجهل والبدع يضربون الكتاب بعضه ببعض، فيؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض وينكرون سنة رسول الله وتفسيرها لكتاب الله)..**

* **فالشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار ، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض ، أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، والشفاعة لأهل التوحيد لا تكون إلا بشرطين :**

**الشرط الأول : أن يأذن الله بها .**

**والشرط الثاني : أن يكون راضياً عمن شفع وعمن شُفِع له .**

**كما قال تعالى {منْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} وقال تعالى {يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}. كما لا يستشكل مثل هذا الأمر على الذين يعظمون في نفوسهم علم الله تعالى المحيط وحكمته وعدله وكرمه.**

* **وقد أنكر الشفاعة وأوَّل أخبارها من أهل البدع الخوارج وقوم من المعتزلة والمتفلسفين وبالغ فيها المرجئة فجعلوها في غير مواضعها تساهلاً.. قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية : الشَّفَاعَةُ أَنْوَاعٌ: مِنْهَا مَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَمِنْهَا مَا خَالَفَ فِيهِ الْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ... ثم ذكر أنواعها وفصَّلها ؛ فراجعه مشكوراً([[33]](#footnote-33)).. وفي الأمر تفصيل ليس هذا مقامه...**
* **وأسباب النجاة من كرب يوم القيامة كثيرة بيَّنها الكتاب والسنة :**

**منها على سبيل المثال : التنفيس عن المسلمين .لحديث أبي هريرة . قال : قال - عليه السلام - ( من نَفَّس عن مؤمن كُرْبة منْ كُرب الدُّنْيا ، نفّـَس اللَّه عنْه كُرْبة منْ كُرَب يومِ الْقِيامَةِ ، ومنْ يسَّرَ على مُعْسرٍ يسَّرَ اللَّه عليْه في الدُّنْيَا والآخِرةِ ) رواه مسلم .**

**ومنها : إنظار المعسر أو الوضع عنه .قال - عليه السلام - ( مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللَّه مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أوْ يَضَعْ عَنْهُ ) رواه مسلم.**

**ومنها : الوفاء بالنذر ، وإطعام الطعام لله ؛ كما قال تعالى { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً } ...إلخ...**

إنعامٌ وتذكير بعد تذكير

**اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَدَّمَ ذِكْرَ نِعَمِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ إِجْمَالًا بَيَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ أَقْسَامَ تِلْكَ النِّعَمِ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي التَّذْكِيرِ وَأَعْظَمَ فِي الْحُجَّةِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: {اذْكُرُوا نِعْمَتِي..} وَاذْكُرُوا إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ.. ، وَاذْكُرُوا إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ.. وَهِيَ إِنْعَامَاتٌ، وَالْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْإِنْعَامُ الْأَوَّلُ.([[34]](#footnote-34))**

**قال تعالى : {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) } (البقرة: 49 – 51) فى هذه الآيات الكريمات تفصيل لتلك النعم، التي أنعم الله بها على بنى إسرائيل، والتي جاء إجمالها في قوله تعالى: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ» .**

**ومع تتابع هذه النعم السابغة، وتوالى هذه الآلاء الكريمة، فإن القوم لم يلقوا هذا الإحسان إلا بالكفران، واللجاج في العناد، والمحادّة لله ورسوله.**

**ينجيهم الله من فرعون، وما رهقهم به من محن، وما رماهم به من بلاء، حيث كان يذبّح أبناءهم، ويستحيى نساءهم بما يدخل عليهم من جنده من استخفاف بحرماتهن، وهتك لأستارهن، مما يجرح حياء المرأة، ويغرق وجه الحرة بماء الخجل! ([[35]](#footnote-35))**

**أَمَّا قَوْلُهُ: {وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ} .. أصل الإنجاء والتنجية هو التخليص ، والآل بمعنى الأهل وخاصة المرء ويُختص بها – في اللغة - ذووا الشأن من الملوك وأمثالهم([[36]](#footnote-36)) ، و(فرعون) هو لقب من يحكم مصر من القِبط ( المصريين) ؛ كما لُقِّب حاكم الفرس بكسرى ، والروم بقيصر ، و الحبشة بالنجاشي .. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَقَ: هُوَ غَيْرُ فِرْعَوْنَ يُوسُفَ وَأَنَّ فِرْعَوْنَ يُوسُفَ كَانَ اسْمُهُ الرَّيَّانَ بْنَ الْوَلِيدِ.. وهذا هو الصَحِيحٍ-كما قال الرازي، إِذْ كَانَ بَيْنَ دُخُولِ يُوسُفَ مِصْرَ وَبَيْنَ أَنْ دَخَلَهَا مُوسَى أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ، ففي زمن يوسف كان يحكم العماليق ( الهكسوس) الذين غزوا مصر من الشام وحكموها قرونا، ثم مُكِّن ليوسف – عليه السلام – وقومه فيها فكانت لهم المكانة في دولة الهكسوس .. فلم حرر أحمس ذلك الفرعون القبطي (وكلمة قبط = تعني مصر وليس مسيحي) شمال مصر من الهكسوس أخذ الفراعنة في استعباد وتعذيب بني إسرائيل نكالا بهم لمرافقتهم الهكسوس ودعمهم ..والله أعلم.**

**و{يسومونكم} أَصْلُهُ مِنْ سَامَ السِّلْعَةَ إِذَا طَلَبَهَا، كَأَنَّهُ بِمَعْنَى يَبْغُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُرِيدُونَهُ بِكُمْ ويولونكم إياه، وَالسُّوءُ مَصْدَرُ سَاءَ بِمَعْنَى السَّيِّئِ، يُقَالُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْخُلُقِ وَسُوءِ الْفِعْلِ يُرَادُ قُبْحُهُمَا، وَمَعْنَى {سُوءِ الْعَذَابِ}؛ مع أن الْعَذَابُ كُلُّهُ سَيِّئٌ أي أَشَدُّهُ وَأَصْعَبُهُ ؛كَأَنَّ قُبْحَهُ زَادَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى سوئه.. فانظر إلى جمال ودقة الأداء القرآني تجد العجب!**

**قال الرازي : وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ مِنْ «سُوءِ الْعَذَابِ» فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّهُ جَعَلَهُمْ خَوَلًا وَخَدَمًا لَهُ وَصَنَّفَهُمْ فِي أَعْمَالِهِ أَصْنَافًا، فَصِنْفٌ كَانُوا يَبْنُونَ لَهُ، وَصِنْفٌ كَانُوا يَحْرُثُونَ لَهُ، وَصِنْفٌ كَانُوا يَزْرَعُونَ لَهُ، فَهُمْ كَانُوا فِي أَعْمَالِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي نَوْعٍ مِنْ أَعْمَالِهِ كَانَ يَأْمُرُ بِأَنْ يُوضَعَ عَلَيْهِ جِزْيَةٌ يُؤَدِّيهَا، وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ قَدْ جَعَلَهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الْقَذِرَةِ الصَّعْبَةِ مِثْلِ كَنْسِ الْمَبْرَزِ وَعَمَلِ الطِّينِ وَنَحْتِ الْجِبَالِ، وَحَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى: { أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنا} (الْأَعْرَافِ: 129) . وَقَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ } (الشُّعَرَاءِ: 22) ..**

**وَاعْلَمْ أَنَّ كَوْنَ الْإِنْسَانِ تَحْتَ يَدِ الْغَيْرِ بِحَيْثُ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ لَا سِيَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَهُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الصَّعْبَةِ الْقَذِرَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، حَتَّى إِنَّ مَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ رُبَّمَا تَمَنَّى الْمَوْتَ فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى عَظِيمَ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ نَجَّاهُمْ مِنْ ذَلِكَ..([[37]](#footnote-37))**

**قال ابن الجوزي :كان الزجاج يرى أن قوله: {يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ ..} تفسير لقوله: { يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ }، وأبى هذا بعض أهل العلم، فقال: قد فرَّق الله بينهما في موضعٍ آخر من كتابه، فقال: {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ..} ، وإنما سوء العذاب: استخدامهم في أصعب الأعمال، وقال الفرّاء: الموضع الذي فيه الواو، يبين أنه قد مسهم من العذاب غير الذبح، فكأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح.([[38]](#footnote-38))**

**قال : وقوله تعالى: {وَيَسْتَحْيُونَ}، أي: يستبقون {نِساءَكُمْ}، أي: بناتكم. وإنما استبقوا نساءكم للاستذلال والخدمة. وفي البلاء هاهنا قولان:**

**أحدهما: أنه بمعنى النعمة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو مالك، وابن قتيبة والزجاج. والثاني: أنه النقمة، رواه السدي عن أشياخه. فعلى هذا القول بمعنى النقمة والابتلاء يكون معنى {ذلِكُمْ}: عائداً على سَوْمهم سوء العذاب، وذبح أبنائهم واستحياء نسائهم، وعلى القول أنه إنعام يعود على النجاة من آل فرعون.**

**قال أبو العالية: وكان السبب في ذبح الأبناء، أن الكهنة قالت لفرعون: سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فقتل الأبناء. قال الزجاج: فالعجب من حمق فرعون، إن كان الكاهن عنده صادقا، فما ينفع القتل؟! وإن كان كاذبا فما معنى القتل؟! ([[39]](#footnote-39))**

معنى (البلاء)

**قال ابن كثير : وَأَصْلُ الْبَلَاءِ – أي في اللغة: الِاخْتِبَارُ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ.ا ه([[40]](#footnote-40))**

**[ ولذلك قيل: بلوت فلانا: إذا اختبرته، وسمّي الغم بلاءً من حيث إنه يبلي الجسم، قال تعالى: {وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } (البقرة/ 49) ، { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ ..}الآية (البقرة/ 155) ، وقال عزّ وجل: { إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ} (الصافات/ 106) ، وسمي التكليف بلاء من أوجه:**

**- أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء.**

**- والثاني: أنّها اختبارات، ولهذا قال الله عزّ وجل: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ} (محمد/ 31) .**

**- والثالث: أنّ اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر.**

**والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: (بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نشكر) ، ولهذا قال أمير المؤمنين على: من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله .**

**وقال تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } (الأنبياء/ 35)، {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً } (الأنفال/ 17) ..**

**وقوله عزّ وجل: {وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} (البقرة/ 49) ، راجع إلى الأمرين، إلى المحنة التي في قوله عزّ وجل: {يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ } (البقرة/ 49) ، وإلى المنحة التي أنجاهم فيها من فرعون وعمله، وكذلك قوله تعالى: { وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاء مُبِينٌ} (الدخان/ 33) ، راجع إلى الأمرين: المنحة والمحنة، كما وصف ربنا كتابه بقوله: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} (فصلت/ 44) فالقرآن فيه الشفاء والهدى للمؤمنين به؛ وفيه العمى والوقر للمعرضين عنه .**

**وإذا قيل: ابْتَلَى فلان كذا ، وأَبْلَاهُ أي امتحنه واختبره ؛ فذلك يتضمن أمرين:**

**أحدهما: تعرّف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره، والثاني: ظهور جودته ورداءته، وربما قُصد به الأمران، وربما يُقصد به أحدهما، فإذا قيل في الله تعالى: (بلا) كذا ، و(أبلاه ) فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته، دون التعرف لحاله، والوقوف على ما يجهل من أمره إذ أنَّ الله علّام الغيوب، وعلى هذا قوله عزّ وجل: {وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} (البقرة/ 124) .ا.ه.([[41]](#footnote-41))**

**جاء في اللطائف : من صبر في الله على بلاء أعدائه عوّضه الله صحبة أوليائه، وأتاح له جميل عطائه فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم، وجعلهم ملوكا، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين. «وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» : قيل نعمة عظيمة وقيل محنة شديدة. وفى الحقيقة ما كان من الله- في الظاهر- محنة فهو- في الحقيقة لمن عرفه- نعمة ومنّة.([[42]](#footnote-42))**

قدر الله غالب وقدرته سبحانه نافذة

**قال العلامة ابن كثير في تفسير أول سورة القصص :**

**{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأرْضِ} أَيْ: تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَغَى. {وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا} أَيْ: أَصْنَافًا، قَدْ صَرَّفَ كُلَّ صِنْفٍ فِيمَا يُرِيدُ مِنْ أُمُورِ دَوْلَتِهِ. وَقَوْلُهُ تعالى: {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ} يَعْنِي: يعني بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العتيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلا ونهارا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة.**

**لهم واحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يوجد منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه.**

**فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب، ولهذا قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ- إلى قوله- يَحْذَرُونَ } وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال تعالى: { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ- إلى قوله- يَعْرِشُونَ } (الأعراف: 137) . وقال تعالى: {كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ ..}(الشُّعَرَاءِ: 59).**

**أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك، وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدللـه وتتفداه، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن..ا.ه([[43]](#footnote-43))**

الإيمان والمعجزة

**قال تعالى : { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) }**

**أما تأويل قوله: (وإذ فرقنا بكم) ، فإنه عطف على: (وإذ نجيناكم) ، بمعنى: واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، وإذ فرقنا بكم البحر.**

**ومعنى قوله: (فرقنا بكم) : فَصَلْنا بكم البحر. لأنهم كانوا اثني عشر سبطا؛ ففرق البحر اثني عشر طريقا، فسلك كل سِبْط منهم طريقا منها، فذلك فرق الله بهم عز وجل البحر، وشقه لهم، وفصّله بتفريقهم في طرقه الاثني عشر..([[44]](#footnote-44))**

**قال ابن سيده في ( المحكم) : وَقَوله تَعَالَى: {وإِذْ فرقنا بكم الْبَحْر} مَعْنَاهُ: شققناه.**

**ذلك أن فرعون لما اشتد أذاه للمؤمنين بموسى عليه السلام واشتدت معاداته للدين الحق وحربه خرج موسى بقومه من مصر فما فاجئه إلا البحر أمامه وفرعون بجنوده يحلقونه من خلفه ، فخاف قومه وذعروا فرد عليهم بيقينه { كلا ، إن معي ربي سيهدين} ؛ فاستجاب الله تعالى ليقينه بربه وفرق بهم البحر فكان كالجبل تجمع على جانبي طريق ممهد وفيه اثنا عشر طريقاً ؛ لكل قبيل منهم طريق حتى لا يتزاحموا في طريق واحد يقتتلون عليه ... فذكرهم ربنا تبارك وتعالى بهذه النعمة والمعجزة العظيمة ..ا.ه**

**( عندما جاء قوم فرعون بعددهم الضخم يقاومون قوم موسى وتراءى الجمعان أي أنهم رأوهم رؤية العين قال قوم موسى «أنا لمدركون» .. وهذا كلام منطقي. فأمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده. ولكن حين تخرج الأحداث من نطاق الأسباب إلى قدرة المُسبِّب فهي لا تخضع لأسباب الكون. ولذلك قال لهم موسى بملء فمه:{ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} .**

**قال تعالى : {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67)} (الشعراء: 61 – 67)**

**وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى بأن يضرب بعصاه البحر فانفرق. وهكذا توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة. وانفرق البحر وأصبح كل جزء منه كالجبل. ذرات الماء تماسكت مع بعضها البعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر منه بنو إسرائيل.**

**هذا هو معنى قوله تعالى: {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر} والفرق هو الفصل بين شيئين. . وإذا كان البحر قد انشق. . فأين ذهب الطين المبتل في قاع البحر(؟!!) .. ( هذا هو معنى المعجزة التي لا تأتي بالحل والجواب والنجاة والعجيب من جنس الأسباب ؛ ولكنها تخرق قوانين الطبيعة في أصولها .. لأن الحديث هنا ليس للطبيعة المخلوقة وقوانينها الربانية، ولكن للرب الخالق سبحانه ) . .**

**وعندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون إلى البحر ليعبروه. أراد أن يضرب البحر ليعود إلى السيولة. فلا يلحق بهم آل فرعون. ولكن الله أوحى إليه: {واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ} (الدخان: 24)**

**أي اترك البحر على ما هو عليه. حتى يتبعكم قوم فرعون. ظانين أنهم قادرون على أن يسلكوا نفس الطريق ويمشوا فيه. وحينما يكون أولهم قريبا من شاطئكم وآخرهم عند الشاطئ الآخر. أعيد الماء إلى استطراقه. فيكون الله تعالى قد نجَّى وأهلك بالسبب الواحد. فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يمُنَّ على بني إسرائيل بأنه أنجاهم من العذاب وأهلك عدوهم. فكان العطاء عطاءين: عطاء إيجاب بأن أنجاهم. وعطاء سلب بأن أهلك عدوهم .. قال تعالى ممتنا عليهم : { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)} (البقرة) .. فالقوم قد عاينوا المعجزة والمنة وعايشوها بشعورهم ووجدانهم وقلوبهم وعقولهم أتم معاينة فكيف ينسون ؟ ثم كيف هم يجحدون ؟ ولا يشكرون؟!!.**

**وقوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ} في هذه الآية لم يتحدث الحق جل جلاله عن فرعون. وإنما تحدث عن إغراق آل فرعون. لماذا؟ لأن آل فرعون هم الذين أعانوه على جبروته وبطشه وطغيانه. هم الأداة التي استخدمها لتعذيب بني إسرائيل.**

**والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بنو إسرائيل آل فرعون وهم يغرقون فوقفوا يشاهدونهم. وأنت حين ترى مصرع عدوك. تشعر بزوال المرارة التي في قلبك.**

**{وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ} تحتمل معنى آخر. أي ينظر بعضكم إلى بعض وأنتم غير مصدقين أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم. وفي نفس الوقت تطمئنون وأنتم تشاهدونهم. وهم يغرقون دون أن ينجو منهم أحد حتى لا يدخل في قلوبكم الشك. أنه ربما نجى بعضهم وسيعودون بجيش ليتبعوكم. )..([[45]](#footnote-45))**

**[ وتَنْظُرُونَ: قيل: معناه بأبصاركم لقُرْبِ بعضهم من بعضٍ، وقيل: ببصائركم للاعتبار لأنهم كانوا في شُغُلٍ.**

**قال الطبريُّ: وفي أخبار القرآن على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلم بهذه المغيَّبات التي لم تكُنْ من علم العَرَب، ولا وقعتْ إلا في خفيِّ علْمِ بني إسرائيل دليلٌ واضحٌ عند بني إسرائيل، وقائم/ عليهم بنبوءة نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلم.]([[46]](#footnote-46))**

**ونتوقف هنا أمام (الأداء النفسي) الرائع للقرآن الحكيم وهو يستجيش في النفس تلك الصورة المتكاملة التفاصيل والمتلاحقة المشاهد والتي تضع المتدبر أمام مشهد حىٍ نابضٍ يوضح مدى جحود بني إسرائيل لنعمة ربهم في إنجائهم وتخليصهم من عدوهم.. وكل ذلك – فقط – في آيةٍ واحدةٍ تمثل في صياغتها لقصة طويلة ومشهد كامل قمة الإعجاز فوق ما تصفه من المعجزة بتفاصيلها.**

لطيفة لغوية وإعجاز علمي

**الفَرْق في اللغة أصله من الفصل قال الزبيدي :**

**فرَق بيْنَهُما أَي: الشيئيْن، يَفْرُق فَرْقاً وفُرْقاناً، بالضّمِّ: أي فصَل. وَقَالَ الأصبهانيّ: الفَرْق يُقارِب الفَلْق، لَكِن الفَلْقُ يُقالُ باعْتِبارِ الانْشِقاق، والفَرْق يُقال باعْتِبار الانْفِصال، ثمَّ الفَرْقُ بينَ الشَّيْئَيْنِ سَواءٌ كَانَ بِمَا يُدرِكُه البَصَر، أَو بِمَا تُدرِكُه البَصيرة ..، قَالَ: والفُرْقانُ أبلَغُ من الفَرْقِ لأنّه يُستَعْمَلُ فِي الفَرْقِ بَين الحقِّ والباطِل، والحُجّة والشُبْهة ..، وقولُه تَعالَى:{ فِيهَا يُفْرَق كُلُّ أمْرٍ حَكِيم }. قَالَ قَتادةُ أَي: يُقْضَى وَقيل: أَي يُفصَلُ. وقولُه تَعالَى:{ وقُرآناً فَرَقْناه } أَي: فصّلْناه وأحْكَمْناه وبيّنّا فِيهِ الأحكامَ، هَذَا على قِراءَةِ من خفّف. وَمن شدّد قَالَ: معناهُ أنزلْناه مُفرَّقاً فِي أيّامٍ، ورُوِي عَن ابنِ عبّاس بالوَجْهين. وقولُه تَعَالَى:{ وَإِذ فَرَقْنا بكُم البَحْر } أَي: فلَقْناه. وَقد تقدّم الفَرْق بَين الفَلْق والفَرْق. وَقَوله تَعالى: { فالفارِقاتِ فَرْقاً } قَالَ الفرّاءُ: هم المَلائِكةُ تَنْزِلُ بالفَرْقِ بَين الحقِّ والباطِل ، وَقَالَ ثعلبٌ: تُزَيِّلُ بَين الحلالِ والحَرام. وَفِي المُفردات: الذينَ يَفصِلون بيْن الأشياءِ حسَب مَا أمَرَهُم الله تَعَالَى.ا.ه.([[47]](#footnote-47))**

**وهنا لنا أن نتعرض لحقيقة علمية أشارت إليها المعجزة في الآية إشارة بعدت أو قربت .. فإن التعبير القرآني عن البحر بالفرق والفلق وأن ذلك تعرض لقوانين الحياة والفيزياء فهدمها تحقيقا للمعجزة في حق سيدنا موسى -عليه السلام – فجزيئات الماء ابتداءً – وكما يعلم علماء الفيزياء والكيمياء- تحتوي داخلها وفيما بينها على مجموعة من الروابط بين ذراته هى من أقوى الروابط في الكون ؛ فجزئ الماء عبارة عن زرتين من الهيروجين وجزئ واحد من الأكسجين ، وبحسب قوانين الفيزياء الكيميائية فإن هذا تركيب غازي لا يحتمل إلا أن يكون غازا .. ولكن مجموعة من الروابط ( الهيدروجينية) وغيرها من الراوبط بين جزيئاته تجعل منه هذا السائل الذي تقوم عليه الحياة ، فهذا التماسك في الماء هو هبة ربانية لإبقاء الحياة ، وحين يكون حديث القرآن عن ( انفراق ، أو انفلاق البحر) فهو إشارة إلى أن الذي وهب هذه الخاصة للماء قادر على أن يسلبها إياه ، ثم إن الماء يتميز بظاهرة عامة في السوائل هى ( الاستطراق) وهى أنه بفعل ظاهرة( التوتر السطحي) (= التماسك بين جزيئاته السطحية الذي يجعلها كسطح متصل واحد)؛ وبفعل هذه الظاهرة لاي يمكن للماء إلا أن ينتشر فتستوي أسطحه ، وكون الآية الأخرى تشير إلى الإعجاز في خرق هذه الظاهرة في قوله تعالى : {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)} (الشعراء: 63).. فإنها إشارات الخالق تعالى لما خلق من قوانين الكون وأن قدرته بلا حدود في أن يخلق ما يشاء ويغير ما يشاء...**

منة.. وكفران

**{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) } [البقرة: 51 - 57]**

مناسبة الآيات

**ذكَّرهم بكفر آبائهم مع هذه الآيات العظام، وأعْلمهم أن كفرهم بالنبي – صلى الله عليه وسلم - مع وضوح أمره وما وقفوا عليه من خبره في كتبهم ككفر آبائهمْ من قبل مع ما مَنَّ الله عليهم.**

**وكان في ذكر هذه الأقاصيص دلالة على تثبيت نُبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن هذه الأقاصيص ليست من علوم العرب، وإنما هى من علوم أهل الكتاب، فأنبأهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بما في كتبهم، وقد علموا أنه منْ العرب الذين لم يقرأوا كتبهم، فعلموا إنَّه لمْ يُعَلمْ هذِه الأقاصيص إلا من جهة الوحي، ففي هذه الآيات إذكارهُم بالنعمة عليهم في أسلافهم، وتثبيت أمر الرسالة كما وصفنا.([[48]](#footnote-48))**

بلاغة وإعجاز القصة والنظام في القرآن العظيم

**ورد ذكر هذا العجل في القرآن أربع مرات ..**

**في البقرة مرتين هذه المرة وفي قوله تعالى : {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92)} البقرة: 92.**

**وفي الأعراف : {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)} .. وفي طه : { فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)}..**

**والمتتبع هنا لسياق القصص القرآني يلاحظ أن القصة القرآنية ربما تتكرر في سور شتى ولكن المدقق يرى أنه في الحقيقة لا تكرار أو هو تكرار بلاغي معنوي إعجازي في مناسبته في موضعه ووظيفته .. فأنت ترى المشهد الواحد يختلف إجمالا وتفصيلا على وفق السياق والغاية الهدائية للآيات ومقصود هذا المشهد في موقعه من البلاغة والهداية..**

**وهذا ما حدث هنا مع قصة (عجل بني إسرائيل) فأنت ترى التفاصيل واضحة تماما في سورة طه وأقل تفصيلاً في الأعراف حتى ترى الإشارة والإجمال في آية البقرة.. وذلك لأن الأخيرة في موضعها من سورة البقرة هى موضع إشارة وتذكير لتتماشي مع سياق التذكير الطويل بتاريخ المنة من الله تعالى والكفران من اليهود .. ثم تجد الإشارة المفصلة قليلا في الأعراف إذ كان الحديث عن التوحيد ودعوة الأنبياء فناسب السياق هنا موقف الاستدلال على قضية التوحيد وحسب..**

**أما في سورة طه فالسياق سياق خطاب تثبيتٍ وتسلية وعبرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتنبيهه على وعورة طريق الرسالة في الأنبياء قبله ؛ ثم إن النصر والفرج من عند الله تعالى مع الصبر والمصابرة من أولي العزم ؛ فكانت لذلك قصة موسى عليه السلام متتامة التفاصيل لهذه الأغراض...**

**ومن هنا نرى تلك الوحدة والترابط والتلائم التام بين القصص القرآني والسياق سواء الخاص في السورة الواحدة أو السياق العام في القرآن كله.. هذا مع روح التجدد في الخطاب للناس أجمعين في كل عصر ومكان من أجل هداية البشرية وسعادتها...**

فما هى قصة عجل بني إسرائيل؟

**وَقَوله تَعَالَى {ثمَّ اتخذتم الْعجل من بعده} يَعْنِي: إِلَهًا، وَله قصَّة مَعْرُوفَة ستأتي فِي سُورَة طه. نسترجعها في هذا الموضع منها وننقل عن ابن كثير في البداية يقول :**

**يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ ذَهَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مِيقَاتِ رَبِّهِ فَمَكَثَ عَلَى الطُّورِ يُنَاجِيهِ رَبُّهُ ، وَيَسْأَلُهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ وَهُوَ تَعَالَى يُجِيبُهُ عَنْهَا ، فَعَمَدَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يقال له هارون السامري فاخذ ما كان استعاره بنو إسرائيل مِنَ الْحُلِيِّ من قبط مصر ؛ فَصَاغَ مِنْهُ عِجْلًا وَأَلْقَى فِيهِ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ كَانَ أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ – عليه السلام - حِينَ رَآهُ يَوْمَ أَغْرَقَ اللَّهُ فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما يَخُورُ الْعِجْلُ الْحَقِيقِيُّ...**

**وَقِيلَ : بَلْ كَانَتِ الرِّيحُ إِذَا دَخَلَتْ مِنْ دُبُرِهِ خَرَجَتْ مِنْ فَمِهِ فَيَخُورُ كَمَا تَخُورُ الْبَقَرَةُ فَيَرْقُصُونَ حَوْلَهُ وَيَفْرَحُونَ فَقالُوا ..{ هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ } أَيْ فَنَسِيَ مُوسَى رَبَّهُ عِنْدَنَا وَذَهَبَ يَتَطَلَّبُهُ وَهُوَ هَاهُنَا - تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ- قال الله تعالى مبينا بُطْلَانَ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ وَمَا عَوَّلُوا عَلَيْهِ مِنْ إِلَهِيَّةِ هَذَا الَّذِي قُصَارَاهُ أَنْ يَكُونَ حَيَوَانًا بَهِيمًا وَشَيْطَانًا رَجِيمًا: { أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً } ، وَقَالَ تعالى : { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكانُوا ظالِمِينَ } فَذَكَرَ تعالى أَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَرُدُّ جَوَابًا وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَهْدِي إِلَى رُشْدٍ ، اتَّخَذُوهُ وَهُمْ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَالِمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ بُطْلَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ ..**

**{وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ } .. أَيْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا { قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَيَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ }.**

**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ وَرَأَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَمَعَهُ الْأَلْوَاحُ الْمُتَضَمِّنَةُ التَّوْرَاةَ أَلْقَاهَا فَيُقَالُ إِنَّهُ كَسَرَهَا. وَهَكَذَا هُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَإِنَّ اللَّهَ أَبْدَلَهُ غَيْرَهَا ، وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ أَلْقَاهَا حِينَ عَايَنَ مَا عَايَنَ. وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمَا كَانَا لَوْحَيْنِ وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ أَنَّهَا أَلْوَاحٌ مُتَعَدِّدَةٌ ..**

**ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَعَنَّفَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا الْقَبِيحِ فَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ بِمَا لَيْسَ بِصَحِيح {قَالُوا إِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ }..**

**أى أنهم تَحَرَّجُوا مِنْ تَمَلُّكِ حُلِيِّ آلِ فِرْعَوْنَ وَهُمْ أَهْلُ حَرْبٍ وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِأَخْذِهِ وَأَبَاحَهُ لَهُمْ .. وَلَمْ يَتَحَرَّجُوا بِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ الْجَسَدِ الَّذِي لَهُ خُوَارٌ مَعَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الْفَرْدِ الصَّمَدِ الْقَهَّارِ.( قلت – محرره : وهكذا القياس الفاسد والتأويل الباطل والعقل السفيه لكل مشرك يبرر شركه ، وكل عاص يصر على معصيته!!)**

**ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَائِلًا له يَا هارُونُ { مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ }.. أَيْ هَلَّا لَمَّا رَأَيْتَ مَا صَنَعُوا اتَّبَعْتَنِي فَأَعْلَمْتَنِي بِمَا فَعَلُوا فَقَالَ هارون – عليه السلام : { إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ } أَيْ تَرَكْتَهُمْ وَجِئْتَنِي ؛ فتفرقوا ؛ وَأَنْتَ قَدِ اسْتَخْلَفْتَنِي فِيهِمْ ..**

**{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }..**

**وَقَدْ كَانَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَهَاهُمْ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ الْفَظِيعِ أَشَدَّ النَّهْيِ ، وَزَجَرَهُمْ عَنْهُ أَتَمَّ الزَّجْرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ به }.. أَيْ إِنَّمَا قَدَّرَ اللَّهُ أَمَرَ هَذَا الْعِجْلِ وَجَعَلَهُ يَخُورُ فِتْنَةً وَاخْتِبَارًا لَكُمْ ..{وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ }- أي لا هذا - {فَاتَّبِعُونِي } - أَيْ فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ - { وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى }.. يَشْهَدُ اللَّهُ تعالى لِهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - { وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً } - أَنَّهُ نَهَاهُمْ وَزَجَرَهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَلَمْ يطيعوه ولم يتبعوه..**

**ثم أقبل موسى عَلَى السَّامِرِيِّ ..{ قَالَ فَما خَطْبُكَ يَا سامِرِيُّ } أَيْ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ .. {قَالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا به } أَيْ رَأَيْتُ جِبْرَائِيلَ عليه السلام وَهُوَ رَاكِبٌ**

**فرسا {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أَثَرِ الرَّسُولِ } أَيْ مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ ( رسول الملائكة). وَقَدْ ذَكَرَ بعضهم أنه رآه وكلما وَطِئَتْ بِحَوَافِرِهَا عَلَى مَوْضِعٍ اخْضَرَّ وَأَعْشَبَ فَأَخَذَ مِنْ أَثَرِ حَافِرِهَا فَلَمَّا أَلْقَاهُ فِي هَذَا الْعِجْلِ الْمَصْنُوعِ مِنَ الذَّهَبِ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ..**

**وَلِهَذَا قَالَ {فَنَبَذْتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ }..**

**وَهَذَا دُعَاءٌ عَلَيْهِ بِأَنْ لَا يَمَسَّ أَحَدًا مُعَاقَبَةً لَهُ عَلَى مَسِّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسُّهُ. هَذَا مُعَاقَبَةٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فِي الْأُخْرَى فَقَالَ : {وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ } وقرئ {لَنْ نُخْلِفَهُ } على أن الكلام والوعيد من الله تعالى .. {وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً } .. قَالَ فَعَمَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى هَذَا العجل فحرقه بالنار ثُمَّ ذَرَّاهُ فِي الْبَحْرِ ، وَأَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَشَرِبُوا فَمَنْ كَانَ مِنْ عَابِدِيهِ عَلَّقَ عَلَى شِفَاهِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الرَّمَادِ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَقِيلَ بَلِ اصْفَرَّتْ أَلْوَانُهُمْ..**

**ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : {إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً }.. وَقَالَ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ }..**

**وَهَكَذَا وَقَعَ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ {وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } مسجلة لكل صاحب بدعة الى يوم القيامة.**

**ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَى عَبِيدِهِ فِي قَبُولِهِ تَوْبَةَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ بِتَوْبَتِهِ عَلَيْهِ فَقَالَ : { وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ من بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }..**

**لَكِنْ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ تَوْبَةَ عَابِدِي الْعِجْلِ إِلَّا بِالْقَتْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } ..**

**فَيُقَالُ إِنَّهُمْ أَصْبَحُوا يَوْمًا وَقَدْ أَخَذَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ فِي أَيْدِيهِمُ السُّيُوفَ وَأَلْقَى الله عليهم ضَبَابًا حَتَّى لَا يَعْرِفَ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ وَلَا النَّسِيبُ نَسِيبَهُ. ثُمَّ مَالُوا عَلَى عَابِدِيهِ فَقَتَلُوهُمْ وَحَصَدُوهُمْ فَيُقَالُ إِنَّهُمْ قَتَلُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعِينَ أَلْفًا.**

**ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَفي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }.. وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ كَمَا سَيَأْتِي أَنَّ عِبَادَتَهُمُ الْعِجْلَ كَانَتْ عَلَى أَثَرِ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ وَمَا هُوَ بِبَعِيدٍ لِأَنَّهُمْ حِينَ خَرَجُوا : {قالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ }.... إلى آخر القصة في البداية.. ([[49]](#footnote-49))**

مع الآيات

**قال العلماء : قُرئ { واعدنا} بزيادة الألف من (المواعدة = المفاعلة) باعتبار الوعد من الله تعالى ، والامتثال من موسى عليه السلام ، وقرئ { وعدنا} مجردةً باعتبار الوعد مجرداً، وعلى الثاني أكثر ما في القرآن نحو: {إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} {وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا} {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ}..و{أربعين ليلة } قالوا : ذي القعدة ثم زاد عشرا من ذي الحجة ، وفيها كان بلاء بني إسرائيل وهلاكهم كما في قوله: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} الأعراف 142..**

**قال الراغب : على ذلك، فإنه قيل له: يكون ذلك انقضاء ثلاثين، ثم كان عند الأربعين، فلم يكن في الوعد إخلاف، وإنما كان فيه بعض الإبهام، فلهذا التبس عليهم، وذكر تعالى عظم جهلهم، وأنهم بعدما أعطوا من البينات ورشحوا لما وعدوا، تهافتوا على عبادة عجل اتخذوه وقوله تعالى: {وأنتم ظالمون} عنى به الظلم المطلق وهو الكفر، وقد تقدم الكلام في أنواع الظلم وأنها : ثلاث أعظمها الكفر.**

**قال: وفي الآية حث على معرفة ما وعدنا الله تعالى به ومراعاته والمنع من الاشتغال عنه تعالى بشيء بغيره، وعلى هذا الوجه قال بعض الناس: كل ما شغلك عن الله فهو عجل مُتَّخَذ وطاغوت مُتَّبَع وشيطان مُطاع ، ومبدأ كل ذلك إتباع الهوى، ولذلك قال: {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وقال وهذا وإن لم يكن كفراً فهو شرك وبهذا الوجع قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}..ا.ه.([[50]](#footnote-50))**

**قال سبحانه : { ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)} [البقرة: 52].. {ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ} أي حين تبتم، والعفو محو الجريمة، من (عفا) إذا دَرَس (قلتُ: والعفو أصل معناه الترك). {مِنْ بَعْدِ ذلِكَ } أي اتخاذ العجل ( قال أبو السعود :**

**الذي هو متناهٍ في القُبح للإيذان بكمال وعظمة العفو بعد تلك المرتبة من الظلم) ، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي لكي تشكروا نعمةَ العفو وتستمرّوا بعد ذلك على الطاعة.**

**وأصل الشكر في اللغة الظهور (يقال شكرت الناقة إذا ظهر أثر العلف عليها ، فكان ظهور أثر نعمة الله على عبده من طاعته هو عين الشكر)، قال الجوهري : الشكر الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف، يقال شكرته وشكرت له، وباللام أفصح والشكران خلاف الكفران.([[51]](#footnote-51))**

**قال الله : {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)}**

**{ وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ } يعني الجامع بين كونه كتابا منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل. يعني التوراة. كقولك: رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة. ونحوه قوله تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ } (الأنبياء: 48) يعني الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياء وذكرا. أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات. أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام. وقيل: الفرقان انفراق البحر. وقيل: النصر الذي فرق بينه وبين عدوه، كقوله تعالى: {يَوْمَ الْفُرْقانِ }(الأنفال: 41) يريد به يوم بدر { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } أي لكي تهتدوا بالعمل فيه من الضلال.([[52]](#footnote-52))**

حديثٌ عن بلاغة الخطاب ( النفسي) في القرآن الكريم

**قال تعالى :{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) } .**

**في هذه الآيات ضرب من ضروب التذكير غير ما سبقه، ومن البلاغة والحكمة أن يجيء تاليا له ومتأخرا عنه: مهد أولا للتذكير تمهيدا يسترعي السمع، ويوجه الفكر ويستميل القلب، وهو الابتداء بذكر النعمة مجملة والتفضيل على العالمين ولا يرتاح الإنسان لحديث كحديث مناقب قومه ومفاخرهم، ثم طفق يفصل النعمة ويشرحها، فبدأ بذكر فرد من أفرادها لا يقترن به ذكر سيئة من سيئاتهم وهو تنجيتهم من ظلم آل فرعون، ولكن ذكر معه أكبر ضروب ذلك الظلم - وهو قتل الأبناء - يخفض من عتو تلك النفوس المعجبة المتكبرة التي تعتقد أن الله لا يسود عليهم شعبا آخر، وهو مع هذا لا ينفر بها عن الإصغاء والتدبر؛ لأنه لم يفاجئها بشيء فيه نسبة التقصير وعمل السوء إليها، ثم ثنى بذكر نعمة خاصة خالصة تسكن النفس إلى ذكرها، إذ لا يشوب الفخر بها تنغيص من تذكر غضاضة تتصل بواقعتها، وهي فرق البحر بهم وإنجاؤهم، وإغراق عدوهم.**

**لا جرم أن نفوس الإسرائيليين كانت تهتز وتأخذها الأريحية عند ما تلا عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية لما فيها من الشهادة بعناية الله - تعالى - بهم، ولا سيما إذا قارنوا بين هذا التذكير وبين تذكير مشركي العرب بتلك القوارع الشديدة، لم يتركها بعد هذه الهزة تجمح في عجبها وفخرها، وتتمادى في إبائها وزهوها، بل عقب عليها فذكر بعد هذه النعمة سيئة لهم، هي كبرى السيئات التي ظلموا بها أنفسهم وكفروا نعمة ربهم، وهي اتخاذ العجل إلها، وقدم على ذكرها خبر مواعدة موسى وهي من النعم، وختمها بذكر العفو، ثم قفى عليها بذكر نعمة إيتائهم الكتاب والفرقان، وهذا ما يجعل أنفس السامعين الواعين قلقة يتنازعها شعور اعتراف المذكر الواعظ لها بالشرف، وشعور رميه إياها بالظلم والسرف.**

**بعد هذا كله استعدت تلك النفوس؛ لأن تسمع آيات مبدوءة بذكر سيئاتها من غير تمهيد ولا توطئة، فانتقل الكلام إلى هذا الضرب من التذكير مبدوءا بقوله - تعالى -: {وإذ قال موسى لقومه} أي واذكر أيها الرسول فيما تلقيه على بني إسرائيل وغيرهم إذ قال موسى لقومه الذين اتخذوا من حليهم عجلا عبدوه إذ كان يناجي ربه في الميقاتين: الزماني، والمكاني {يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل} إلها عبدتموه. والقصة مفصلة في سورتي الأعراف وطه المكيتين؛ لأن قصة موسى فيهما مقصودة بالذات، وأما ما هنا فهو تذكير لبني إسرائيل بما تقدم وجهه في سياق دعوتهم إلى الإسلام .. {فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم} أي فتوبوا إلى خالقكم الذي لا يجوز أن تعبدوا معه إلها آخر هو أدنى منكم، وهو من خلقكم، أي تقديركم وصنعكم، وذلك بأن يقتل بعضكم بعضا، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليبخع كل من عبد العجل نفسه انتحارا.**

حقيقة معنى التوبة في النفس

**تكلم الأستاذ محمد عبده في التوبة وقال:**

**إنها محو أثر الرغبة في الذنب من لوح القلب، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه، وما له من السلطان عليه في الحال، وكون مصيره إليه في المآل، لا جرم أن الشعور بهذا السلطان الإلهي بعد مقارفة الذنب يبعث في قلب المؤمن الهيبة والخشية، ويحدث في روحه انفعالا مما فعل، وندما على صدوره عنه، ويزيد هذا الحال في النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب، وما رتبه الله عليه من العقوبة في الدنيا والآخرة. هذا أثر التوبة في النفس، وهذا الأثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذي تاب منه وتمحو أثره السيئ {إن الحسنات يذهبن السيئات} ..**

**فمن علامة التوبة النصوح الإتيان بأعمال تشق على النفس، وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذي يحدثه الذنب، وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة، سواء كان الذنب مع الله - تعالى - أو مع الناس، ألا ترى أن أهون ما يكون من إنسان يذنب مع آخر يباهي به أن يجيء معترفا بالذنب معتذرا عنه؟ وهذا ذل يشق على النفس لا محالة، وقد أمر بنو إسرائيل بأشق الأعمال في تحقيق التوبة من أكبر الذنوب، وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبرأهم إلى عبادة ما عملوا بأيديهم وقد قال: (فتوبوا إلى بارئكم) لينبههم إلى أن الإله الحقيقي هو الخالق البارئ ليتضمن الأمر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم، ذلك العمل الذي أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم..**

**قال - تعالى -: {ذلكم خير لكم عند بارئكم} لأنه يطهركم من رجس الشرك الذي دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلا لما وعدكم به في الدنيا ولمثوبته في الآخرة،**

**وقوله: {فتاب عليكم} من كلام الله - تعالى - لا تتمة لكلام موسى - عليه السلام - في الظاهر، وهو معطوف على محذوف، تقديره ففعلتم ما أمركم موسى به، فتاب عليكم {إنه هو التواب الرحيم} أي أنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بتوفيقهم لها وقبولها منهم، وإن تعددت قبلها جرائمهم، الرحيم بهم، ولولا رحمته لعجل بإهلاكهم ببعض ذنوبهم الكبرى ولاسيما الشرك به.**

**{وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة} أي واذكروا إذ قلتم لنبيكم: يا موسى لن نصدق بما جئت به تصديق إذعان وإتباع، حتى نرى الله عيانا جهرة، فيأمرنا بالإيمان لك، {فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون} أي فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون بأعينكم، وسيأتي بيان هذا بالتفصيل في سورة الأعراف، فالقصة هنالك مقصودة بكل ما فيها من فائدة وعبرة، وإنما المراد بها هنا التذكير كما تقدم.**

**قال الأستاذ الإمام: سؤال بني إسرائيل رؤية الله - تعالى - واقعة مستقلة لا تتصل بمسألة عبادة العجل، وهي معروفة عند بني إسرائيل ومنصوصة في كتابهم، .. وقد أخذ هذا العذاب تلك الطائفة والآخرون ينظرون، وهكذا بنو إسرائيل يتمردون ويعاندون موسى - عليه السلام -، وكان سوط عذاب الله يصب عليهم، فرموا بالأمراض والأوبئة، وسلطت عليهم الهوام وغيرها حتى أماتت منهم خلقا كثيرا، فمجاحدتهم ومعاندتهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - لم تكن بدعا من أعمالهم. ([[53]](#footnote-53))**

**دلت الآية على أن طلب رؤيته تعالى في الدنيا مستنكر غير جائز، ولذا لم يذكر، سبحانه وتعالى، سؤال الرؤية إلا استعظمه. وذلك في آيات. منها هذه. ومنها قوله تعالى: { يسألك أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ }(النساء: 153) ، ومنها قوله تعالى: { وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً }(الفرقان: 21)؛ فدلت هذه التهويلات الفظيعة الواردة لطالبيها في الدنيا على امتناعها فيها.**

**وكما أخبر تعالى بأنه لا يرى في الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة في آيات عديدة، كما تواترت الأحاديث الصحيحة بذلك، وهي قطعية الدلالة. لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا أن العقل قد حكم بها.([[54]](#footnote-54))**

**أقول :**

**إنها النزعة المادية في اليهود الذين لا يرون الروح في الوجود ولكنهم يؤمنون بالمادة والدنيوية والعالمانيةsecularism فيقتلون الروح فكراً وعملا ، على عكس النصارى الذين غلبت عليهم الروحانية الكاذبة المبالغ فيها فانتهوا إلى فصل الحياة عن الدين .. والحقيقة أن توازن الإسلام بين الروح والمادة في وسطيةٍ موزونة هو ما يجعله دواءاً شافيا لأدواء كل الملل التي انحرفت سواه..**

**والقرآن هنا يقرر أدواء اليهود في كل عصر .. فإنهم ماديون ، ويجادلون بالباطل دائما ، ويحنون إلى الشرك ومعصية الله تعالى في كل حين....**

**يقول العلامة رشيد رضا ( المنار 1/ 267):**

**والعبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ما تقدم كان موجها إلى الذين كانوا في عصر التنزيل، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم تختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعقوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار وبالشكر، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة، واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات، وما يجازيها به من النعم والنقم، إنما يكون لمعنى موجود فيها يصح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق، كأنه وقع به؛ ليعلم الناس أن سنة الله - تعالى - في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يواقعها هو ؛ كما قال تعالى : {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} ، وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها؛ لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين.ا.ه.**

**قلتُ : روى الإمام أحمد وغيره بسند صحيح عن قيس قال: قام أبو بكر – رضى الله عنه- فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير مواضعها : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} إنا سمعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه".**

نعود للآيات

**بعد هذا ذكر الله - تعالى - نعمة أخرى، بل نعمتين من النعم التي من بها على بني إسرائيل، فكفروا بها، ولكنه لم يذكر ما كان به الكفران، بل طواه وأشار بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا الله - تعالى - بذلك الذنب المطوي وإنما ظلموا أنفسهم، وهذا أسلوب آخر من أساليب البيان في التذكير، وضرب من ضروب الإيجاز التي هي أقوى دعائم الإعجاز.**

**أما النعمة الأولى فقوله - تعالى -: {وظللنا عليكم الغمام} قال الأستاذ الإمام: هذه نعمة مستقلة متصلة بما قبلها في سياق الذكرى، منفصلة عنها في الوقوع، فإن التظليل استمر إلى دخولهم أرض الميعاد، ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يظللهم في التيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم.**

**وأما النعمة الثانية ففي قوله - تعالى -: {وأنزلنا عليكم المن والسلوى} ما منح من الله - تعالى - يسمى إيجاده إنزالا ومنه قوله تعالى: {وأنزلنا الحديد} (الحديد 25) على أن المن ينزل كالندى، وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل، تقع على الحجر وورق الشجر مائعة، ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس. وأما السلوى فقد فسروها بالسماني، وهو الطائر المعروف، فمعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا. وظاهر أن قوله - تعالى -: {كلوا من طيبات ما رزقناكم} مقدر فيه القول ؛ أى قلنا لهم.**

**وفي (سفر الخروج) أن بني إسرائيل أكلوا المن أربعين سنة وأن طعمه كالرقاق بالعسل، وكان لهم بدلا من الخبز، وليس المراد أنه لم يكن لهم أكل سواه إلا السلوى، فقد كان معهم المواشي، ولكنهم كانوا محرومين من النبات والبقول كما يعلم مما يأتي.**

**وفي قوله - تعالى -: {وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} تقرير لقاعدة مهمة، وهي أن كل ما يطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته، وكل ما ينهاه عنه فإنما يقصد به دفع الضرر عنه، ولن يبلغ أحد نفع الله فينفعه، ولن يبلغ أحد ضره فيضره، كما ثبت في الحديث القدسي. فكل عمل ابن آدم له أو عليه {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} (البقرة 286) ا.ه ([[55]](#footnote-55))**

اليهود والتبديل والتحريف

**قال تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58)}**

**فقَوْله تَعَالَى: {وَإِذ قُلْنَا ادخُلُوا هَذِه الْقرْيَة} سميت الْقرْيَة قَرْيَة؛ لِأَنَّهَا تجمع أَهلهَا.. وَمِنْه قَرْيَة النَّمْل؛ لِأَنَّهَا تجمع النَّمْل، وَالْمرَاد بالقرية هَاهُنَا الْبَيْت الْمُقَدّس. وَقيل: هِيَ أرِيحَا مَوضِع هُنَالك.**

**{فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُم رغدا} وَمعنى الرغد هُوَ الرزق الْوَاسِع الَّذِي لَا يضيق وَلَا يتعب طَالبه.**

**{وادخلوا الْبَاب سجدا} أَرَادَ بِالْبَابِ: بَاب الْقرْيَة. وَقيل: هُوَ بَاب حطة، وَهُوَ بَاب إيلياء (= القدس).**

**{سجدا} أَي: ركعا خضعا. وأصل السُّجُود الخضوع وَفِي الرُّكُوع خضوع..**

**{وَقُولُوا حطة} قَالَ ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا: مَعْنَاهُ قُولُوا: حُطَّ عنا ذنوبنا...**

**{نغفر لكم} تقْرَأ بقراءتين: " نغفر لكم " بالنُّون، و " يغْفر لكم " بِالْيَاءِ وهما وَاحِد. وَهُوَ من الغَفْر، وَهُوَ السّتْر. وَمِنْه الْمَغْفِرَ؛ لِأَنَّهُ يستر الرَّأْس. كَذَلِك الْمَغْفِرَة تستر الذُّنُوب.**

**{خطاياكم} جمع الْخَطِيئَة وَتجمع على الخطيئات أَيْضا، وَهِي الذُّنُوب. يُقَال: خطئَ يُخطئ خطأ وخطيئة، إِذا أذْنب مُتَعَمدا. وَأَخْطَأ يُخطئ إخطاء إِذا أذْنب خاطئا.**

**{وسنزيد الْمُحْسِنِينَ} من فضلنَا. ( قلت : فَأَما المحسنون: فَقَالُوا الَّذِي أمروا بِهِ، وَأما الَّذين عصوا: فَقَالُوا قولا غير لَّذِي قِيلَ لَهُم ، فأهل الطاعة هم المحسنون ، وقال الراغب في تفسيره : وقد تقدم أن الإحسان زائد على العدالة، لأن العادل هو الذ يفعل ما إذا أخل به تلحقه المذمة، والمحسن من زاد على ذلك، ولذلك قيل: " عدل الله كله إحسان " )..**

**وقَوْله تَعَالَى: {فبدل الَّذين ظلمُوا قولا غير الَّذِي قيل لَهُم} أَجمعُوا على أَنهم بدلُوا قَول الحطة بِالْحِنْطَةِ، وَقَالُوا بلسانهم: هطا سمقاثا. أَي: حِنْطَة حَمْرَاء.( قيل: إنهم تكلموا بكلام بالنبطية على جهة الاستهزاء والخلاف.) وَقيل: إِنَّهُم دخلُوا الْبَاب يزحفون على استاههم، وَكَانَ قد طوطىء لَهُم الْبَاب، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَن يدخلُوا قيَاما، وأبوا أَن يدخلُوا سجدا، فَدَخَلُوا يزحفون على استاههم مُخَالفَة فِي الْفِعْل كَمَا بدلُوا القَوْل.**

**وقَوْله تَعَالَى: {فأنزلنا على الَّذين ظلمُوا رجزا من السَّمَاء بِمَا كَانُوا يفسقون} .**

**الرجز. الْعَذَاب. والرجس: النتن. وَالرجز (بِضَم الرَّاء) صنم على قَول من قَرَأَ {وَالرجز فاهجر} وَقيل: أنزل الله عَلَيْهِم إِذْ فعلوا ذَاك طاعونا أهلك مِنْهُم أَرْبَعَة وَعشْرين ألفا فِي سَاعَة وَاحِدَة. {بِمَا كَانُوا يفسقون} من الْمُخَالفَة فعلا وقولا. ([[56]](#footnote-56))**

**قال القشيري في لطائف الإشارات (1/ 93):**

**تواصى بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يؤمرون، حتى قالة (= قولاً) أوصوا بحفظها فبدّلوها، وحالة من السجود أمروا بأن يدخلوا عليها فحوّلوها، وعرّضوا أنفسهم لعواقب الغيب، ثم لم يطيقوا الإصابة بقَرْعها ، وتعرضوا لمفاجات العقوبة فلم يثبتوا عند صدمات وقعها.ا.ه.**

**وهكذا امتلئ تاريخ اليهود بالمعصية والمخالفة والمروق من دين الله حتى صاروا مثلاً يضرب لكل مخالفٍ ومعاند ومستهزئٍ بدين الله وعليهم جميعاً وأمثالهم قوله تعالى {.. قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)} (التوبة: 64 – 66)..**

**الخطايا أنواع**

**قال الراغب الأصفهاني ([[57]](#footnote-57)): والخطايا على ضروب:-**

**أحدها : أن يريد ما لا يجوز إرادته ويفعله فهذا هو الخطأ التام من كل وجه المأخوذ به الإنسان.**

**والثاني : أن يريد ما يجوز فعله، لكن وقع منه خلاف ما أراد فيقال: أصاب في الإرادة، وأخطأ في الفعل، وهو المعنى بقوله: عليه السلام: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان)، وقوله: (من اجتهد فأخطأ فله أجر)..**

**والثالث: أن يريد ما لا يحسن فعله ويحدث منه خلافه، فهذا مذموم لقصده ، وغير محمود على فعله ، والله أعلم بالنوايا (قلتُ : وهو ما ذكره تعالى في قوله : {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188)} (آل عمران: 188)**

**\*\*\*\***

**قال تعالى بعدها : {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)} ..**

**قَالَ قَتَادَة: كَانَ هَذَا وهم فِي الْبَريَّة، اشتكوا إِلَى مُوسَى الظمأ، فسقوا من حجر كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام يحملهُ مَعَه من جبل الطُّور، فَكَانُوا إِذا نزلُوا ضربه مُوسَى بعصاه، فانفجرت مِنْهُ اثْنَتَا عشرَة عينا لكل سِبْطٍ عين. وَمعنى السبط فِي اللُّغَة: الْجَمَاعَة الَّذين يرجعُونَ إِلَى أَب وَاحِد.([[58]](#footnote-58))**

**والاستسقاء طلب السقي أو الإسقاء، فالسقي من الفعل ( سقى) أن يجعل له ماء يشربه، والإسقاء من الفعل (أسقى) هو التعريض للماء، وجعله له ليتناوله متى أراد، فهو أخص معنى من السقي.([[59]](#footnote-59))**

**وفي سورة الأعراف آية: 160، في قوله تعالى: { فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً } «انبجست» ، وهو رشح الماء ، والانفجار خروجه بكثرة وغزارة لأنه انبجس ثم انفجر، كما قال في العصا إنها جان في قوله تعالى: {وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ } ( النمل10).وهي الحية صغيرة، والثعبان الكبيرة لأنها ابتدأت صغيرة ثم كبرت فكأنه رسم حى لتطور الموقف .**

**وقوله تعالى {وَلا تَعْثَوْا} في اللغة (عاث وعثي): أفسد أعظم الفساد ، وقال تعالى {مُفْسِدِينَ } وهى حال مبينة للفعل ، إذ بعض الفساد في الظاهر وباطنه في الحقيقة صلاح، كخرق الخضر السفينة وقتله الغلام ( راجعه في قصة الخضر وموسى في سورة الكهف).([[60]](#footnote-60))**

**فتأمل دقة القرآن البلاغية في أداء المعاني الخفية تلوح لك أنوار الإعجاز بهيةً زكية..**

**وقَوْله تَعَالَى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِد} إِلَى {وبصلها} ..**

**قَالَ قَتَادَة: لما أنزل اللَّه عَلَيْهِم الْمَنّ والسلوى فِي التيه مَلُّوهُ وَذكروا عَيْشًا كَانَ لَهُم بِمصْر؛ فَقَالَ اللَّه - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُم: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا} يَعْنِي: مصرا من الْأَمْصَار {فَإِنَّ لكم مَا سَأَلْتُم} وقَالَ الْكَلْبِيّ. (اهْبِطُوا مِصْرَ) بِغَيْر ألف؛ يَعْنِي: مصر بِعَينهَا. قَالَ قَتَادَة: والفوم: الْحبّ الَّذِي يختبزه النَّاس {وَضربت عَلَيْهِم الذلة والمسكنة} يَعْنِي: الْجِزْيَة. وَقد قِيلَ الذلة: الصَّغَار، والمسكنة: الخضوع.**

**{وَبَاءُوا بِغَضَبٍ من الله} يَعْنِي: استوجبوا. ومعنى باءوا فِي اللُّغَة: رجعُوا؛ يُقَال: بؤت بِكَذَا فَأَنا أَبُوء بِهِ، وَلا يُقَال: بَاء إِلَّا بِشَرٍّ.**

**{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله} يَعْنِي: بِأَمْر الله. ([[61]](#footnote-61))**

**{ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)}**

**وقوله تعالى {ذلِكَ} إشارة إلى ما تقدّم من ضرب الذلة والمسكنة واستحقاقهم الغضب من الله تعالى ، أي ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء ؛ وقد قتلت اليهود- لعنوا- شعيا وزكريا ويحيى وغيرهم..**

**فان قلتَ: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟**

**قلتُ: معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيستحقوا القتل ؛ وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم.**

**وقرأ علىّ رضى اللَّه عنه {ويقتِّلون } بالتشديد..**

**وقوله تعالى {ذلِكَ } تكرار للإشارة {بِما عَصَوْا} بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود اللَّه في كل شيء، مع كفرهم بآيات اللَّه وقتلهم الأنبياء.**

**وقيل: هو اعتداؤهم في السبت. ويجوز أن يشار بذلك إلى أن الكفر وقتل الأنبياء على كان بسبب عصيانهم واعتدائهم، لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا. ([[62]](#footnote-62))**

طالب الخسة في الصغير يطلبها في كبير الأمور

**وبيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه لما اختار الله لهم ما يتبلغون به، أبَوْا إلا الميل إلي القاذورات وما فيه مراعاة القوة البهيمية، والعناية بتربيتها فقال: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى} أي أخس بما هو خير مطلق، ثم قال: {اهْبِطُوا مِصْرًا} وذلك على نحو: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} فكأنه قيل: إن لم ترغبوا فيما اخترته لكم، وفيه خلاصكم، فشأنكم في قصد المكان الذي لا يعدم فيه ما ترمونه، وذكر ثلاثة أحوال كل واحدة كالمعلول للأخرى، فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} أي حصلت لهم هذه العقوبة التي هي الذلة والمسكنة والغضب من أجل كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين، وحصل لهم الكفر، وقتل النبيين بالعصيان والاعتداء، وذلك أنه كما أن الخيرات صغارها سبب لتحري كبارها، كذلك الشرور صغارها سبب لارتكاب كبارها، فبين أنهم لما عصوا وتعدوا، أدى ذلك بهم إلى الكفر وقتل الأنبياء، وأدى ذلك بهم إلى أن ألزموا الذلة والمسكنة، وغضب الله عليهم، وفيها تنبيه لنا أن من طلب لنفسه غيره ما أثره الله له، فقد خرج من التوكل بل قد تعدى فقد قال أهل الصفاء: (ومن لم يهتد بما يختاره الله له، لم يهتد بما يختاره لنفسه)، ولهذا قال النبي في الدعاء: " اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ".([[63]](#footnote-63))**

**ولاحظ الإيقاع البلاغي في التعبير ب "ضربت" في قوله تعالى {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمسكنة} وكأنها جعلت علامةً لازمةً لهم. كما قال الزمخشري: جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم، فهم فيها كما يكون في القبة من ضُرِبت عليه. أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب ([[64]](#footnote-64))، كما يُضرب الطين على الحائط فيلزمه، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومفقرة إما على الحقيقة، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم، خيفة أن تُضاعف عليهم الجزية. وقوله {وَباءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ} هو من قولك: باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، لمساواته له ومكافأته، أى صاروا أحقاء بغضبه. ([[65]](#footnote-65))**

تفسير الآيات [البقرة: 62 -64]

**{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)} [البقرة: 62 - 64]**

مناسبة الآيات لما قبلها

**لما بيَّن سبحانه أنهم لما تعنتوا على موسى عليه السلام كما مر ويأتي عن نصوص التوراة مرة بعد مرة أورثهم كفراً في قلوبهم فمردوا على العصيان والتجرّؤ على مجاوزة الحدود فضرب عليهم الذلة والمسكنة وأحلهم الغضب، وكان في ذلك تحذير لمن طلب سلوك ذلك الصراط المستقيم من حالهم، وإعلام بأن المتقين المستجاب لهم في الدعاء بالهداية ليسوا في شيء من ذلك بل قالوا: {اهدنا الصراط المستقيم}، عن يقين وإخلاص متبرئين من الدعاوى والاعتراض على الرسل.فنبَّه على أن من عمل ضد عملهم فآمن (برسالة محمد- عليه السلام- الخاتمة) منهم أو من غيرهم من جميع الملل كان على ضد حالهم عند ربهم، فلا يغضب عليهم بل يوفيهم أجورهم ويورثهم الأمن والسرور؛ فقال تعالى {إن الذين آمنوا}.**

**أو يُقال: إنه سبحانه لما علّل إهانة بني إسرائيل بعصيانهم واعتدائهم كان كأنه قيل: فماذا لمَن أطاع؟ فأُجيب بجوابٍ عام لهم ولغيرهم.**

**أو يُقال: إنّه لما أخبر تعالى بأنهم ألزموا – بكفرهم-الخزي وغضب الله تعالى؛ وكان ذلك ربما أوهمهم أنه لا خلاص لهم منه وإن تابوا، وكانت عادته سبحانه في كتابه جاريةٌ بأنه إذا ذكر وعداً أو وعيداً أعقبه بضده ليكون الكلام تاماً لا إفراط ولا تفريط، أعلمهم – سبحانه-أن باب التوبة مفتوح والرب كريم على وجهٍ عام. ([[66]](#footnote-66))**

تدبر الآيات.

**{إن الذين آمنوا } قد اختلف المفسرون في المراد منه، وسبب هذا الاختلاف قوله تعالى في آخر الآية: {من آمن بالله واليوم الآخر}، فإن ذلك يقتضي أن يكون المراد من الإيمان في قوله تعالى: {إن الذين آمنوا } غير المراد منه في قوله تعالى: {من آمن بالله} ونظيره في الإشكال قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا} (النساء: 136)، فلأجل هذا الإشكال ذكروا وجوها:-**

**أحدها: وهو قول ابن عباس. المراد الذين آمنوا قبل مبعث محمد بعيسى عليهما السلام مع البراءة عن أباطيل اليهود والنصارى مثل قس بن ساعدة، وبحيرى الراهب وحبيب النجار وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري ووفد النجاشي فكأنه تعالى قال: إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد والذين كانوا على الدين الباطل الذي لليهود والذين كانوا على الدين الباطل الذي للنصارى؛ كل من آمن منهم بعد مبعث محمد عليه السلام بالله واليوم الآخر وبمحمد فلهم أجرهم عند ربهم.**

**وثانيها: أنه تعالى ذكر في أول هذه السورة طريقة المنافقين ثم طريقة اليهود، فالمراد من قوله تعالى: {إن الذين آمنوا} هم الذين يؤمنون باللسان دون القلب وهم المنافقون، فذكر المنافقين ثم اليهود والنصارى والصابئين؛ فكأنه تعالى قال: هؤلاء المبطلون كل من أتى منهم بالإيمان الحقيقي صار من المؤمنين عند الله وهو قول سفيان الثوري.([[67]](#footnote-67))**

**وثالثها: المراد من قوله: {إن الذين آمنوا} هم المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام في الحقيقة وهو عائد إلى الماضي، ثم قوله تعالى: {من آمن بالله} يقتضي المستقبل فالمراد الذين آمنوا في الماضي وثبتوا على ذلك واستمروا عليه في المستقبل وهو قول المتكلمين.([[68]](#footnote-68))**

**{والذين هَادُواْ} أي تهوَّدوا من (هادَ) إذا دخَل في اليهودية، ولفظ (يهودُ) إما عربي من هاد إذا تاب؛ سُموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل، وخُصوا به لما كانت توبتهم هائلة، وإما معرَّبُ من (يهوذا) كأنهم سُمّوا باسم أكبرِ أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام.**

**{والنصارى}([[69]](#footnote-69)) ، {والصابئين} هم قومٌ بين النصارى والمجوس، وقيل أصلُ دينهم دينُ نوحٍ عليه السلام، وقيل هم عبدةُ الملائكة، وقيل عبدةُ الكواكب، فهو إن كان عربياً فمن فعل (صَبأ) إذا خرج من دين إلى آخرَ، أو من (صَبَا) إذا مال؛ لما أنهم مالوا من سائر الأديان إلى ما هم فيه، أو مالوا من الحق إلى الباطل.([[70]](#footnote-70)) هذه الفرق الأربعة أنهم إذا آمنوا بالله فلهم الثواب في الآخرة ليعرف أن جميع أرباب الضلال إذا رجعوا عن ضلالهم وآمنوا بالدين الحق فإن الله سبحانه وتعالى يقبل إيمانهم وطاعتهم ولا يردهم عن حضرته البتة، واعلم أنه قد دخل في الإيمان بالله الإيمان بما أوجبه، أعني الإيمان برسله ودخل في الإيمان باليوم الآخر جميع أحكام الآخرة، فهذان القولان قد جمعا كل ما يتصل بالأديان في حال التكليف وفي حال الآخرة من ثواب وعقاب.([[71]](#footnote-71))**

**والمراد بالإيمان هاهنا هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله لما سأله جبريل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره»، ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا بالقرآن فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلما مؤمنا ولم يبق يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا.([[72]](#footnote-72))**

**وأما قوله تعالى: {ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} فقيل: أراد زوال الخوف والحزن عنهم في الدنيا، ومنهم من قال في الآخرة في حال الثواب، وهذا أصح لأن قوله: {ولا خوف عليهم} عام في النفي، وكذلك:{ولا هم يحزنون} وهذه الصفة لا تحصل في الدنيا وخصوصا في المكلفين لأنهم في كل وقت لا ينفكون من خوف وحزن، إما في أسباب الدنيا وإما في أمور الآخرة، فكأنه سبحانه وعدهم في الآخرة بالأجر، ثم بيَّن أن من صفة ذلك الأجر أن يكون خاليا عن الخوف والحزن. ([[73]](#footnote-73))**

لمسات بيانية.

**\*ما وجه الاختلاف من الناحية البيانية بين آية 62 في سورة البقرة، وآية 69 في سورة المائدة؟**

**في المائدة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (69)}، وفي البقرة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62)}. الآيتان فيهما تشابه واختلاف وزيادة في إحداها عن الأخرى.**

**أولا: من حيث الإعراب والتقديم والتأخير، ودوره في صياغة المعنى والدلالة؟**

**النصب في "الصابئين" ليس فيه إشكال (إذ هو من باب العطف على اسم إن الناصبة)، وإنما الرفع هو الذي كثيراً ما يُسأل عنه. والرفع في آية سورة المائدة من حيث الناحية الإعرابية ليس فيه إشكال عند النحاة لأنهم يقولون على غير إرادة (إنّ)، على محل إسم إنّ (فكأنها لم تكن عاملة في "الصابئين"، و"الصابئون" معطوفة على محل اسمها الذي هو مبتدأ قبل دخول "إن"). أى يجعلونه مبتدأ جملةٍ مستأنفة على تقدير: والصابئون كذلك. لكن ما النكتة البيانية في ذلك حتى لو خرّجناها نحوياً؟ فالإعراب فرع المعنى. لماذا رفع "الصابئون"؟ (إنّ) تفيد التوكيد فمعناه أن هنا قِسم مؤكّد وقسم غير مؤكد. (الصابئون) غير مؤكدة، والباقي مؤكد لماذا؟ لأنهم دونهم في المنزلة. فهم أبعد المذكورين ضلالاً.. يقول المفسرون أن هؤلاء يعبدون النجوم. صبأ في اللغة أي خرج عن المِلّة، أو الدين. فالصابئون خرجوا عن الديانات المشهورة، ودخلوا في الوثنية البغيضة.. هؤلاء أبعد المذكورين عن رقى الإيمان، والباقون أصحاب كتاب، فالذين هادوا والنصارى والذين آمنوا أتباع رسالات وكتب سماوية وإن ضلوا، ولقد عاب القرآن على اليهود إذ صححوا مذهب الشركين على دين الإسلام؛ وكانوا أولى باتباع دين محمد والأنبياء قبله أو حتى عدم نصرة الوثنية عليه. فوجب هنا ألا يوضع الجميع في سلةٍ واحدة، فمن كان عنده كتاب وجاءه رسول ؛ وإن حرَّف وبدل أولى ممن عبد الوثن والطاغوت، ويرسم معالم هذا الإنصاف التشكيل النحوي في الآية الكريمة التي فصلت" الصابئين" عن أهل الكتاب في الإعراب، وهو بعينه ما عناه- الجرجاني- في نظريته الشهيرة عن النظم ..**

**\*لماذا لم يأت بها مرفوعة ووضعها في نهاية الترتيب؟ هنا ندخل في مسألة التقديم والتأخير وليست في مسألة المعنى. وهي ليست الآية الوحيدة التي فيها تغيّر إعرابي. في آية التوبة {وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (3) التوبة}،فقد عدلت الآية عن إعراب "ورسولَه" على النصب مع أنه يمكن العطف على لفظ الجلالة "الله" المنصوب إعراباً، وإنما عُطف على المحل، أي (ورسوله كذلك بريء) لأن براءة الرسول ليست ندّاً لبراءة الله تعالى، ولكنها تبع لها، براءة الله تعالى هي الأولى ولو كانت "ورسولَه" على النصب تكون مؤكَّدة ومقارنة لبراءة الله، فإشارة ذلك إلى أن براءته ليست بمنزلة براءة الله سبحانه وتعالى، وإنما هي دونها فرفعت" ورسولُه) على غير إرادة (إنّ).**

**حتى في الشعر العربي: إن النبوةَ والخلافةَ فيهمُ\*\*\* والمكرماتُ وسادةٌ أطهارُ.**

**قال "المكرماتُ" بالرفع، ولم يقل "المكرماتِ" نصبا بالعطف على اسم "إن"؛ لأن المكرمات وهؤلاء السادة لا يرتقون لا إلى النبوة ولا إلى الخليفة. هذه الدلالة موجودة في الشعر ففهمها العرب.**

**وفي سورة الحج تحدثت الآيات عن مطلق الايمان والكفر والحساب يوم القيامة لذلك لما بدأ ذكرهم أولاً بالتأكيد جمعهم جميعاً بحرف العطف حتى يأتي معنى كلمة {يفصل بينهم}. لاحظ الآية: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)}، إذن هنا لا مجال ولا معنى لفصل المؤمنين لأن الفصل سيكون يوم القيامة. وهنا في آية المائدة: إن الذين آمنوا لهم حكم، وهؤلاء لهم حكم مقيّد إذا فعلوا هذا معناه أنه سينحازون الى الإيمان والاسلام. لكن هنا ليس هناك كلام على الايمان أو غيره وإنما كلام على الفصل، كيف يفصل؟ لا بد أن يجمعهم أولاً ثم يفصل بينهم؛ فكان التركيب النحوي بالعطف في سورة الحج مفيدا لمعنى الجمع يوم الجمع لساعة الفصل.**

**\*\*\***

**يبقى السؤال حول التقديم والتأخير في الترتيب في آية المائدة قال تعالى {والصابئون والنصارى}، وآية البقرة فيها: {والنصارى والصابئين}. ففي المائدة قدّم ورفع "الصابئين"، بناءاً على أنه ذمّ النصارى في المائدة ذماً فظيعاً على معتقداتهم، وتكلم على عقيدة التثليث، فجعلهم كأنهم لم يؤمنوا بالله ابتداءً، وكأنهم صنف من المشركين ؛ ففيها قال تعالى:{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ (72)}، وقال: {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (74)}، ولما كان الكلام على ذم العقائد عقيدة النصارى أخّر النصارى حتى تكون منزلتهم أقل، وقدّم الصابئين مع أنهم لا يستحقون. وفي البقرة لم يذم عقيدة النصارى في سياق الآيات؛ إذ لم يكونوا مقصودون به فوُضع الصابئين في موضعهم المنطقي في آخر المِلل.**

**ثانياً: هناك فرق بين الآيتين {فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} في آية سورة البقرة، أما في سورة المائدة {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}، والمذكورين في الآيتين هم نفسهم (الذين آمنوا، الذين هادوا، النصارى، الصابئين)، فما دلالة ما جاءت في سورة البقرة {فلهم أجرهم عند ربهم} ولم تأتِ في سورة المائدة؟.**

**الجواب: أن في سورة المائدة السياق كما قلنا في ذمّ عقائد اليهود والنصارى ذمّاً كثيراً مسهباً. أما في سورة البقرة، فالكلام عن اليهود فقط وليس النصارى. ولنتأمل الآيات في السورتين وكيف تحدثت عن اليهود: ففي سورة البقرة والتي كانت أول ما نزل في المدينة وفيها أول لقاء بين الرسول وأهل الكتاب ، هنالك في السورة تجد السياق تذكير بنعمة الله وفضله على يهود والوعظ والأمل في عودتهم عن ضلالهم، فسياق الوعظ والترقيق في آيات البقرة يستصحبه الوعد بالأجر للمهتدين؛ ولذلك جاءت {فلهم أجرهم عند ربهم}.**

**على خلاف السياق في سورة المائدة والتي نزلت في أواخر ما نزل في عمر دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة حين اشتداد ضلال أهل الكتاب وحربهم على دين الله الحق ، فاسترسلت سورة المائدة في الدفاع عن عقيدة الحق وذم عقائد الضالين من يهود والنصارى، وفي هذا السياق القوى في الحق والعنيف على الشرك لا مجال هنا سوى للترغيب اللطيف مع ترهيب خفى في قوله تعالى:{فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}؛ وكأنه يقول لهم لا نجاة من الخوف والحزن في الآخرة بغير تقوى الله والرجوع إلى سبيله.**

**وفي هذا دروس تربوية للمنهج الدعوي المتدرج في نشر الحق والدفاع عنه والقوة والحكمة في بيانه حين يقتضي الأمر.**

**وهذا بالضبط ما نقصده بالسياق الترتيبي، والسياق التاريخي الدعوي، والسياق التربوي، وأثر كل هذا في نظم وتركيب، ودلالة وتدبر القرآن العظيم.**

**وأيضاً بما أن سورة البقرة جاءت أقل غضباً وذكراً لمعاصي اليهود لذا جاءت الرحمة فقد وردت الرحمة ومشتقاتها في سورة البقرة( 19 مرة) بينما وردت في المائدة ( 5 مرات) لذا اقتضى التفضيل بزيادة الرحمة في البقرة، والأجر يكون على قدر العمل فالنسبة للذين آمنوا من أهل الكتاب قبل تحريفه وهم مؤمنون بالله تعالى عليهم أن يؤمنوا إيماناً آخر باليوم الآخر المقصود الذين آمنوا إيماناً حقيقياً.**

**ثالثاً:{ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} تعبير في غاية العجب، والدقة من الناحية التعبيرية والدقة الدلالية والأداء، ولا تعبير آخر يؤدي مؤدّاه.بما يمكن أن نسميه" الدقة الأدائية" في لغة القرآن.**

**وتفصيل ذلك أنه نفى من الخوف الاسم ولم ينفي فعل الخوف، فلم تكن" ولا يخافون"، كما قال " ولا هم يحزنون"، ثم ما قيمة ضمير" هم" الدلالية ههنا؟**

**إن الخوف أمر جبلي لا ينفك عنه إنسان، وخصوصا في هول مشاهد القيامة؛ والمؤمن ممدوح بخوفه من الله الذي يبلِّغه الأمن يوم القيامة، فليس من المناسب نفى فعل الخوف عنه، والنفي هنا لمقتضى الخوف {لا خوف عليهم} معناها لا يُخشى عليهم خطر؛ فالخوف موجود، وهو طبيعي، ولكن الأمان من الله تعالى أمّنهم به. وبما أنهم عرفوا مكانهم عند ربهم فليس بقلوبهم مكان للحزن؛ فنفى فعلهم للحزن على ما فاتهم؛ فمن كان الله معه ل يفته شيء، كما نفى تجدد الحزن لهم في ذلك الموقف العصيب يوم الدين أو فيما يسقبل بعده.. كما لا يستقيم قولنا" لا حزن عليهم" بمعنى لا يحزن عليهم احد؛ فالمؤمن تبكيه الأرض والسماء، بعكس الكفار {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)} (الدخان: 29).**

**والنكتة في {ولا هم يحزنون}: بتقديم (هم) أي أن الذين يحزن غيرهم وليس هم. نُفي الفعل عنهم، ولكن أُثبِت لغيرهم بدلالةٍ غير مباشرة .. كأن نقول (ما أنا ضربته) أي لست أنا الذي ضربته ، فانظر من ضربه؟ نفيته عن نفسي ، وأشير إلى وجود شخص آخر ضربه (يُسمّى في علوم البلاغة التقديم للقصر)، أما عندما نقول (ما ضربته) يعني لا أنا ولا أعلم غيري.**

**\* ما الفرق بين(عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا) في سورة الكهف و (وَعَمِلَ صَالِحًا) هنا في آية البقرة؟**

**في عموم القرآن إذا كان السياق في العمل يقول (عملاً صالحاً). كما في آخر سورة الكهف {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110)} لأنه تكلم عن الأشخاص الذين يعملون أعمالاً سيئة، ويكون السياق في الحديث عن الأعمال وشروط قبولها وصحتها {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)} والسورة أصلاً بدأت بالعمل {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2)}.مع العمل يقول "عملاً" تنبيها لخطورة وشأن العمل في السياق الدلالي للآيات.**

**أما في آية البقرة:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62)} فليست في سياق الأعمال فقال {عمل صالحاً} هكذا بمطلقها.**

**وههنا نصل إلى أن لغة القرآن في دقة أداء كلماتها وقيمة تركيبها وسياقاتها الدلالية المتنوعة وتشابهها واختلافها محكمة احكاماً معجزا لا يستطيعه بشر، ومن يمتلك قدرا مناسبا من الحس اللغوي والبلاغي يدرك عظمة لغة القرآن وأدائها التربوي والعقلاني اللطيف.**

عودة للآيات.

**{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)}**

**{وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ} مرة أخرى يذكر الله اليهود بجريمة متجددة من جرائم أسلافهم وقد استنوا سنتهم واتبعوا طريق كفرهم خطوةً بخطوة، ونعلاً بنعل. ومرةً أخرى يذكرهم بفضل الله عليهم، وإرادته (أي محبته) الهداية لهم؛ ولكن القوم – كعادتهم- ينكصون على أعقابهم ويتولون عن الحق مدبرين.**

**[ نعمة ما أعظمها، وما أولاها بالتلقي بالشكر والولاء للمنعم..**

**ولكن أنّى للعمى أن يبصروا، وللصمّ أن يسمعوا؟.**

**طلبوا إلى موسى آية يرون الله فيها، فجاءتهم الآية منذرة مفزعة..**

**رأوا الجبل الذي بين أيديهم يتحول إلى سقف مرفوع فوق رءوسهم، لا يمسكه شيء وظنوا أنه واقع عليهم، ففزعوا إلى موسى يطلبون الخلاص والرجوع إلى الله، وفى هذا يقول الله تعالى: «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ» (17: الأعراف) .([[74]](#footnote-74))**

**والميثاق في اللغة من (وثق) أي أكَّد وشدَّد؛ فقد أخذ الله عليهم العهود المؤكَّدَة على الإيمان بموسى عليه السلام، والعمل بكل ما جاء به من عند الله تعالى من التوراة، وكالعادة – أيضاً- فإن اليهود- وأشباههم- يريدون أن يعبدوا الله بما يريدون لا بما يريد الله تبارك وتعالى؛ فأبوا قبول كتاب الله، فرفع اللهُ – سبحانه- الجبل فوق رؤوسهم آيةً أخرى على صدق المبلِّغ عن الله، ورحمةً بهم؛ إذ يشفع كل رسالةٍ إليهم بما يدل على صدقها عنه سبحانه.**

**[ قال الأستاذ محمد عبده: لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح، فهو لا يحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات، وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بني إسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان، وإنما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم، فقد قال - تعالى - في سورة الأعراف: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(7)} والنتق: الزعزعة والهز والجذب والنفض، ونتق الشيء ينتقه نتقا، أي جذبه واقتلعه، والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الإيمان وعاهدوا موسى عليه. فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم، من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق، كان لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد؛ لأن رؤية الآيات تقوي الإيمان، وتحرك الشعور والوجدان؛ ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله: {خذوا ما آتيناكم بقوة} أي تمسكوا به واعملوا بجد ونشاط، لا يلابس نفوسكم فيه ضعف، ولا يصحبها وهن ولا وهم، ثم قال: {واذكروا ما فيه} أي بالمحافظة على العمل به؛ فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخا في النفس مستقرا عندها. ويؤثر عن أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - أنه قال: يهتف العلم بالعمل. فإن أجابه وإلا ارتحل. وذلك أن العلم إنما يحضر في النفس مجملا غير سالم من إبهام وغموض، فإذا برز للوجود بالعمل صار تفصيليا جليا، ثم ينقلب النظري منه بالتكرار والمواظبة- بالعمل- بديهيا ضروريا.**

**ويقول – رشيد رضا: إن في هذا الحجة على قراء القرآن، الذين ليس لهم منه إلا التغني بألفاظه وأفئدتهم هواء لا أثر فيها للقرآن، وأعمالهم لا تنطبق على ما جاء به القرآن، وهذا شر نوعي النسيان، وقد ضرب له أبو حامد الغزالي مثل: عبيد أقطعهم سيدهم بستانا وكلفهم إصلاحه وعمارته، وكتب لهم كتابا يبين لهم فيه كيف يسيرون في هذا الإصلاح، وكيف تكون حياتهم فيه، ووعدهم على الإحسان بمكافأة وأجر فوق ما يستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته، وتوعدهم على الإساءة في العمل بالعقوبة الشديدة وراء ما يفوتهم من خيرات البستان، وما يذوقون من مرارة سوء المعاملة فيما بينهم، فكان حظهم من الكتاب تعظيم رقه وورقه، والتغني بلفظه، وتكرار تلاوته، بدون مبالاة بالأمر والنهي ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه، بل عاثوا في أرض البستان مفسدين فأهلكوا الحرث والنسل، فهل يكون حظ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجة عليهم، وقاطع لألسنة العذر منهم؟ !**

**أمرهم سبحانه بالذكر الذي يثبت بالعمل، ووصله بذكر فائدته وهي إعداده النفس لتقوى الله - عز وجل -، فقال: {لعلكم تتقون}، فإن المواظبة على العمل بما يرشد إليه الكتاب تطبع في النفس ملكة مراقبة الله - تعالى - فتكون بها نقية تقية، راضية مرضية {والعاقبة للتقوى}.**

**وبعد أن ذكر لهم تلك الآية، وما اتصل بها من الهداية، ذكَّرهم بما كان منهم من التولي عن الطاعة والإعراض عن القبول، ثم امتن عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة، والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة، فقال: {ثم توليتم من بعد ذلك} أي ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة من بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التي تؤثِّر في القلوب، وتستكين لها النفوس {فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين} أي إنكم بتوليكم استحققتم العقاب، ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم، ولولا ذلك لخسرتم في الدنيا والاخرة.([[75]](#footnote-75))**

**أقول: ففضل الله ورحمته هنا غما بمعنى توفيقهم للتوبة وقبولها منهم أو إعطاءهم فرصة ثانية واختبارهم برسالة محمد عليه السلام. فالخطاب إما على متابعة السياق في الحديث عن بني إسرائيل أسلاف اليهود وجرائمهم الفظيعة وإمهال الله تعالى لهم، واتباع أخلافهم لهم في غيهم.. وإما لليهود المعاصرين لرسول الله ومن يأتي بعدهم في وجوب مخالفة من سبقهم في كفره وضلاله واتباع رسالة خاتم الأنبياء.**

**وعلى كلٍ فالخطاب على عمومه وتجدده لكل كتبع لنهج أولئك اليهود إلى يوم الدين.**

**قال القشيري:**

**أخذ سبحانه ميثاق جميع المكلّفين، ولكنّ قوما أجابوا طوعا لأنه تعرّف إليهم فوحّدوه وقوما أجابوه كرها لأنه ستر عليهم فجحدوه، ولا حجّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور- وهو الجبل- ولكن عدموا نور البصيرة، فلا ينفعهم عيان البصر. قال الله تعالى «ثم توليتم من بعد ذلك» ، أي رجعتم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان، ولولا حكمه بإمهاله، وحلمه بأفضاله لعاجلكم بالعقوبة، وأحلّ عليكم عظيم المصيبة ولخسرت صفقتكم بالكلّية.([[76]](#footnote-76))**

**وإنما قال: (ميثاقكم) ولم يقل مواثيقكم لوجهين، أحدهما: أراد به الدلالة على أن كل واحد منهم قد أخذ ذلك الميثاق منه زيادة في تأكيد المعنى وخصوصية الخطاب؛ كما قال تعالى:{ثم يخرجكم طفلا} (غافر: 67) أي كل واحد منكم. والثاني: أنه كان ميثاقا واحدا بشروط واحدة اخذت على الجميع؛ فعبر عنه بالمفرد، والله أعلم.([[77]](#footnote-77))**

فهرس الموضوعات

[المناسبة والسياق والجو العام للآيات 4](#_Toc416635013)

[فائدة : لماذا كثر الخطاب لبني اسرائيل في سورة البقرة وفي القرآن بعامة؟ 6](#_Toc416635014)

[فائدة : ما هو العهد المذكور في الآية الكريمة ؟ 12](#_Toc416635015)

[فصل: خطورة شأن العلم والتعليم وإرشاد الخلق . 17](#_Toc416635016)

[مسألة فقهية : هل يجوز اخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم ؟ 18](#_Toc416635017)

[مسلك اليهود وكل المضللين (بكسر اللام) في الغواية . 20](#_Toc416635018)

[سر اقتران الصلاة بالزكاة في القرآن..وعظمة التكافل الاجتماعي من خلال آيات الله. 21](#_Toc416635019)

[فائدة : في قوله تعالى { واركعوا مع الراكعين} 23](#_Toc416635020)

[{... أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ...} 24](#_Toc416635021)

[قاعدة للتصحيح وغوصٌ في العمق 28](#_Toc416635022)

[فائدة : العلم والدعوة لا ينفعان بغير عمل 30](#_Toc416635023)

[{واستعينوا بالصبر والصلاة} 32](#_Toc416635024)

[فائدة : الصبر والصلاة = أصل الهداية 36](#_Toc416635025)

[فائدة : في الخشوع ومعناه 41](#_Toc416635026)

[عودة إلى نداء بني إسرائيل 45](#_Toc416635027)

[تشريف وتكليف .. ونعمةٌ وإساءة 46](#_Toc416635028)

[{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ ... الآية} 49](#_Toc416635029)

[من عقيدة أهل السنة في الشفاعة. 52](#_Toc416635030)

[إنعامٌ وتذكير بعد تذكير 55](#_Toc416635031)

[معنى (البلاء) 59](#_Toc416635032)

[قدر الله غالب وقدرته سبحانه نافذة 61](#_Toc416635033)

[الإيمان والمعجزة 62](#_Toc416635034)

[لطيفة لغوية وإعجاز علمي 66](#_Toc416635035)

[منة.. وكفران 67](#_Toc416635036)

[مناسبة الآيات 68](#_Toc416635037)

[بلاغة وإعجاز القصة والنظام في القرآن العظيم 68](#_Toc416635038)

[فما هى قصة عجل بني إسرائيل؟ 70](#_Toc416635039)

[مع الآيات 74](#_Toc416635040)

[حديثٌ عن بلاغة الخطاب ( النفسي) في القرآن الكريم 77](#_Toc416635041)

[حقيقة معنى التوبة في النفس 79](#_Toc416635042)

[نعود للآيات 82](#_Toc416635043)

[اليهود والتبديل والتحريف 84](#_Toc416635044)

[طالب الخسة في الصغير يطلبها في كبير الأمور 89](#_Toc416635045)

[تفسير الآيات [البقرة: 62 -64] 91](#_Toc416635046)

[مناسبة الآيات لما قبلها 91](#_Toc416635047)

[تدبر الآيات. 92](#_Toc416635048)

[لمسات بيانية. 96](#_Toc416635049)

[عودة للآيات. 102](#_Toc416635050)

1. تفسير المنار (1/ 240) [↑](#footnote-ref-1)
2. تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 75) [↑](#footnote-ref-2)
3. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (1/ 94) باختصار طفيف. [↑](#footnote-ref-3)
4. تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 80) [↑](#footnote-ref-4)
5. في ظلال القرآن (1/ 63) [↑](#footnote-ref-5)
6. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 333) وقال الشيخ العلامة احمد شاكر تعليقا على الرواية : الخبر: 1519 - هذا له حكم الحديث المرفوع، لأنه حكاية عن وقائع في عهد النبوة، كانت سببا لنزول الآية، تشير الآية إليها. الراجح أن يكون موصولا. لأن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري الظفري المدني: تابعي ثقة، وهو يحكي عن"أشياخ منهم"، فهم آله من الأنصار. وعن هذا رجحنا اتصاله. وقد نقل السيوطي 1: 87 هذا الخبر، ونسبه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وأبي نعيم، والبيهقي، كلاهما في الدلائل. [↑](#footnote-ref-6)
7. تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 178) [↑](#footnote-ref-7)
8. فَقَدْ جَاءَ في التَّورَاةِ في صِفَةِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّه يُقِيمُ مِنْ إِخْوَتِهِمْ نَبِيّاً يُقيمُ الحَقَّ) ، وَجَاءَ في سِفْرِ تَثْنِيَةِ الاشْتِرَاعِ: (قَالَ لِيَ الرَّبُ: أَحْسِنُوا فِيمَا تَتَكَلَّمُونَ سَوْفَ أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيّاً مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلامي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ، وَيَكُونُ الإِنسَانُ الذِي لا يَسْمَعُ لِكَلاَمِي، وَالذِي يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ، وَيَكُونُ الإِنسَانُ الذِي لاَ يَسْمَعُ لِكلاَمِي، وَالذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أَكُونُ المُنْتَقِمَ مِنْهُ) . وَلكِنَّ اليّهُودَ حَرَّفُوا هذِهِ البِشَارَاتِ وَأَوَّلُوهَا بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ. راجع أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 47، بترقيم الشاملة آليا) [↑](#footnote-ref-8)
9. تأمل هنا فائدة : في آلية الترجيح في التفسير بناءً على غرض القرآن الأساس في الهداية العامة وعموم الخطاب القرآني . [↑](#footnote-ref-9)
10. انتهى من تفسير البغوي ملخصاً. [↑](#footnote-ref-10)
11. وتأمل هنا فائدة في: عظمة القرآن واستخدامه لكل إمكانات البلاغة العربية في توضيح فكرته. [↑](#footnote-ref-11)
12. في ظلال القرآن (1/ 67)للأستاذ سيد قطب رحمه الله. [↑](#footnote-ref-12)
13. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 560) باختصار. [↑](#footnote-ref-13)
14. قال القرطبي في تفسيره 1/ 316 : وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم - لهذه الآية وما كان في معناها فمنع ذلك الزهري وأصحاب الرأي وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والإخلاص فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام ، وقد قال تعالى : ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا . وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال معلمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين . وروى أبو هريرة قال : قلت يا رسول الله ما تقول في المعلمين قال درهمهم حرام وثوبهم سحت وكلامهم رياء وروى عبادة بن الصامت قال : علمت ناسا من أهل الصفة القرآن والكتابة ، فأهدى إلي رجل منهم قوسا فقلت : ليست بمال وأرمي عنها في سبيل الله فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن سرك أن تطوق بها طوقا من نار فاقبلها . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء لقوله عليه السلام في حديث ابن عباس حديث الرقية إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله أخرجه البخاري وهو نص يرفع الخلاف فينبغي أن يعول عليه . وأما ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ، لأنه في مقابلة النص ثم إن بينهما فرقانا وهو أن الصلاة والصوم عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلم فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن ، قال ابن المنذر وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة ويجوز أن يستأجر الرجل يكتب له لوحا أو شعرا أو غناء معلوما بأجر معلوم . فيجوز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة . وأما الجواب عن الآية - فالمراد بها بنو إسرائيل ، وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا ، فيه خلاف ، وهو لا يقول به .

    جواب ثان : وهو أن تكون الآية فيمن تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك وقد يتعين عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته ، ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين إعانته ، وإلا فعلى المسلمين لأن الصديق رضي الله عنه لما ولي الخلافة وعين لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق فقيل له في ذلك فقال ومن أين أنفق على عيالي فردوه وفرضوا له كفايته ، وأما الأحاديث فليس شيء منها يقوم على ساق ولا يصح منها شيء عند أهل العلم بالنقل أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طريف عن عكرمة عنه وسعيد متروك وأما حديث أبي هريرة فرواه علي بن عاصم عن حماد بن مسلمة عن أبي جرهم عنه وأبو جرهم مجهول لا يعرف ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد يقال له أبو جرهم ، وإنما رواه عن أبي المهزم وهو متروك الحديث أيضا وهو حديث لا أصل له وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلي عن عبادة بن نسي عن الأسود بن ثعلبة عنه والمغيرة معروف عند أهل العلم ولكنه له مناكير هذا منها قاله أبو عمر ثم قال وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العلم لأنه روي عن عبادة من وجهين وروي عن أبي بن كعب من حديث موسى بن علي عن أبيه عن ابن مسعود وهو منقطع وليس في الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأبي يحتمل التأويل ; لأنه جائز أن يكون علمه لله ثم أخذ عليه أجرا . [↑](#footnote-ref-14)
15. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 487). [↑](#footnote-ref-15)
16. قاله العلامة الشوكاني في فتح القدير (1/54) [↑](#footnote-ref-16)
17. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 133) [↑](#footnote-ref-17)
18. من خواطر إيمانية حول القرآن الكريم للعلامة الشيخ الشعراوي (تفسير الشعراوي) [↑](#footnote-ref-18)
19. جاء في ظلال القرآن (1/ 68): [↑](#footnote-ref-19)
20. (رواه احمد وأبو يعلى بسند صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (1/ 585) برقم291 ) [↑](#footnote-ref-20)
21. أخرجه ابن ماجه في سننه (قال الألباني في الضعيفة (4/ 138برقم 1634): ضعيف الإسناد جدا.) [↑](#footnote-ref-21)
22. من تفسير ابن كثير (1/253-255). [↑](#footnote-ref-22)
23. قاله السعدي رحمه الله في تفسيره. [↑](#footnote-ref-23)
24. قاله العلامة ابن عاشور في التحرير 1/379 . [↑](#footnote-ref-24)
25. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 255) [↑](#footnote-ref-25)
26. في ظلال القرآن (1/ 69) [↑](#footnote-ref-26)
27. تفسير ابن عرفة (1/ 274) بتصرف [↑](#footnote-ref-27)
28. مختصر صحيح الإمام البخاري للألباني (3/ 10) [↑](#footnote-ref-28)
29. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (4/ 375) [↑](#footnote-ref-29)
30. التفسير القرآني للقرآن (1/ 81) [↑](#footnote-ref-30)
31. انظر زهرة التفاسير (1/ 223)و التفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي (1/ 119) بتصرف. [↑](#footnote-ref-31)
32. التفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي (1/ 119) [↑](#footnote-ref-32)
33. شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (1/ 282) [↑](#footnote-ref-33)
34. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 504) [↑](#footnote-ref-34)
35. التفسير القرآني للقرآن (1/ 84) . [↑](#footnote-ref-35)
36. قَالَ الْقَفَّالُ: أَصْلُ الْإِنْجَاءِ وَالتَّنْجِيَةِ التَّخْلِيصُ، وَأَنَّ بَيَانَ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ حتى لا يَتَّصِلَا وَهُمَا لُغَتَانِ نَجَّى وَأَنْجَى وَنَجَا بِنَفْسِهِ، وَقَالُوا لِلْمَكَانِ الْعَالِي: نَجْوَةٌ لِأَنَّ مَنْ صَارَ إِلَيْهِ نَجَا، أَيْ تَخَلَّصَ وَلِأَنَّ الْمَوْضِعَ الْمُرْتَفِعَ بَائِنٌ عَمَّا انْحَطَّ عَنْهُ فَكَأَنَّهُ مُتَخَلِّصٌ مِنْهُ. قَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ: أَصْلُ آلٍ أَهْلٌ وَلِذَلِكَ يُصَغَّرُ بِأُهَيْلٍ فَأُبْدِلَتْ هَاؤُهُ أَلِفًا وَخُصَّ اسْتِعْمَالُهُ بِأُولِي الْخَطَرِ وَالشَّأْنِ، كَالْمُلُوكِ وَأَشْبَاهِهِمْ وَلَا يُقَالُ: آلُ الْحَجَّامِ وَالْإِسْكَافِ، قَالَ عِيسَى: الْأَهْلُ أَعَمُّ مِنَ الْآلِ، يُقَالُ: أَهْلُ الْكُوفَةِ وَأَهْلُ الْبَلَدِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَلَا يُقَالُ: آلُ الْكُوفَةِ وَآلُ الْبَلَدِ وَآلُ الْعِلْمِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: الْأَهْلُ هُمْ خَاصَّةُ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَغْلِيبِهِ عَلَيْهِمْ، وَالْآلُ خَاصَّةُ الرَّجُلِ مِنْ جِهَةِ قَرَابَةٍ أَوْ صُحْبَةٍ. وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ سَمِعَ فَصِيحًا يَقُولُ: أَهْلُ مَكَّةَ آلُ اللَّهِ. ا.ه. من تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 504) [↑](#footnote-ref-36)
37. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 505) [↑](#footnote-ref-37)
38. قلتُ : وهذا ما نعنيه بالنظرة الشمولية في تفسير القرآن وفهمه من خلال جمع نظائره وتحليلها في سياق عام متصل يبين بعضه بعضا ، وهو ما فصلته في كتابي تدبر القرآن الكريم من الداخل أتمه الله ونشر خيره. [↑](#footnote-ref-38)
39. زاد المسير في علم التفسير (1/ 63) [↑](#footnote-ref-39)
40. تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 259) [↑](#footnote-ref-40)
41. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: 145،6) [↑](#footnote-ref-41)
42. لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 89) [↑](#footnote-ref-42)
43. تفسير ابن كثير ت سلامة (6/ 221) [↑](#footnote-ref-43)
44. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (2/ 50) [↑](#footnote-ref-44)
45. من تفسير الشيخ الشعراوي (1/ 329) بتصرف وزيادة. [↑](#footnote-ref-45)
46. تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (1/ 237) [↑](#footnote-ref-46)
47. راجع تاج العروس للزبيدي (26/ 279) [↑](#footnote-ref-47)
48. معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 133). [↑](#footnote-ref-48)
49. راجع البداية والنهاية ط الفكر لابن كثير(1/ 286 ،9) [↑](#footnote-ref-49)
50. تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 189) [↑](#footnote-ref-50)
51. انظر تفسير القاضي البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (1/ 80)، تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (1/ 101)، فتح البيان في مقاصد القرآن لصدي خان(1/ 169). [↑](#footnote-ref-51)
52. تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 306) [↑](#footnote-ref-52)
53. تفسير المنار لرشيد رضا (1/ 264-267) باختصار. [↑](#footnote-ref-53)
54. تفسير القاسمي = محاسن التأويل (1/ 308) [↑](#footnote-ref-54)
55. تفسير المنار (1/ 267-9) [↑](#footnote-ref-55)
56. تفسير السمعاني (1/ 83-84) ط. دار الوطن الرياض [↑](#footnote-ref-56)
57. تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 202) دار الوطن الرياض. [↑](#footnote-ref-57)
58. تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (1/ 144) [↑](#footnote-ref-58)
59. تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 206) [↑](#footnote-ref-59)
60. إيجاز البيان عن معاني القرآن (1/ 100) للنيسابوري المتوفي 550 ه. [↑](#footnote-ref-60)
61. تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (1/ 145) [↑](#footnote-ref-61)
62. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 146) [↑](#footnote-ref-62)
63. تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 212) [↑](#footnote-ref-63)
64. لزَبَ يَلزُب ، لُزوبًا ، فهو لازب ، ولَزَبَ الشَّيْءُ : ثَبَتَ أَوِ اشْتَدَّ، لزَب الطِّينُ : لزِق وتماسك { إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ }: شديد متماسك الأجزاء. [↑](#footnote-ref-64)
65. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 146) [↑](#footnote-ref-65)
66. البقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (1/ 453) بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-66)
67. (قلت: وبه قال الزمخشري في الكشاف وله في ذلك أرب خفي) وإن كان وجها وجيها). [↑](#footnote-ref-67)
68. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 535).. جاء في فتح القدير للشوكاني (1/ 110): والأولى أن يقال: إن المراد الذين صدقوا النبي صلى الله عليه وسلم وصاروا من جملة أتباعه، وكأنه سبحانه أراد أن يبين أن حال هذه الملة الإسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد، وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا استحق ما ذكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كله والأجر دقه وجله. [↑](#footnote-ref-68)
69. قال أبو السعود: جمع نَصرانٍ كندامَى جمعُ ندمانٍ يقال رجلٌ نصرانٌ وامرأة نصرانةٌ والياء في نصراني للمبالغة كما في أحمريّ سُموا بذلك لأنهم نَصَروا المسيحَ عليهِ السَّلامُ أو لأنهمُ كانوا معه في قرية يقال لها نَصرانُ فسُمّوا باسمها أو نُسبوا إليها والياء للنسبة وقال الخليل واحدُ النصارى نَصري كمَهْري ومهارى. [↑](#footnote-ref-69)
70. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (1/ 108). جاء في تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 284): وقال السدي: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا} الآية: نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، بينا هو يحدث النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبيا، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله صلى الله عليه وسلم: "يا سلمان، هم من أهل النار". فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية، فكان إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، عليه السلام؛ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكا. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لم يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل -كان هالكا. [↑](#footnote-ref-70)
71. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 537) [↑](#footnote-ref-71)
72. فتح القدير للشوكاني (1/ 110) [↑](#footnote-ref-72)
73. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 537). قلت: وأخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ، وابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: {إن الذين آمنوا والذين هادوا }، قال: فأنزل الله بعد هذا: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} «آل عمران: 85» . أقول: وهذا من باب التوسع في إطلاق المتقدمين النسخ على أشياء من باب بيان النص وتخصيصه، فالمعنى في الآيتين واحد يؤكد على ان الإيمان الذي ينجي ويعتبر به هو في الحقيقة الإيمان بالله وبمحمد وباليوم الاخر والقرآن وهو الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه. فلا تعارض. [↑](#footnote-ref-73)
74. التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب(1/ 93) [↑](#footnote-ref-74)
75. تفسير المنار (1/ 282) [↑](#footnote-ref-75)
76. لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 96) [↑](#footnote-ref-76)
77. مستفاد من تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (3/ 538) بتصرف. [↑](#footnote-ref-77)